الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

الموضوع:

أصل مشكلة الشر
عند جون جاك روسو

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

إعداد الطالبة:

ربعي وفاء

إشراف:

د.زروخي الدراجي

السنة الجامعية: 2017/2016

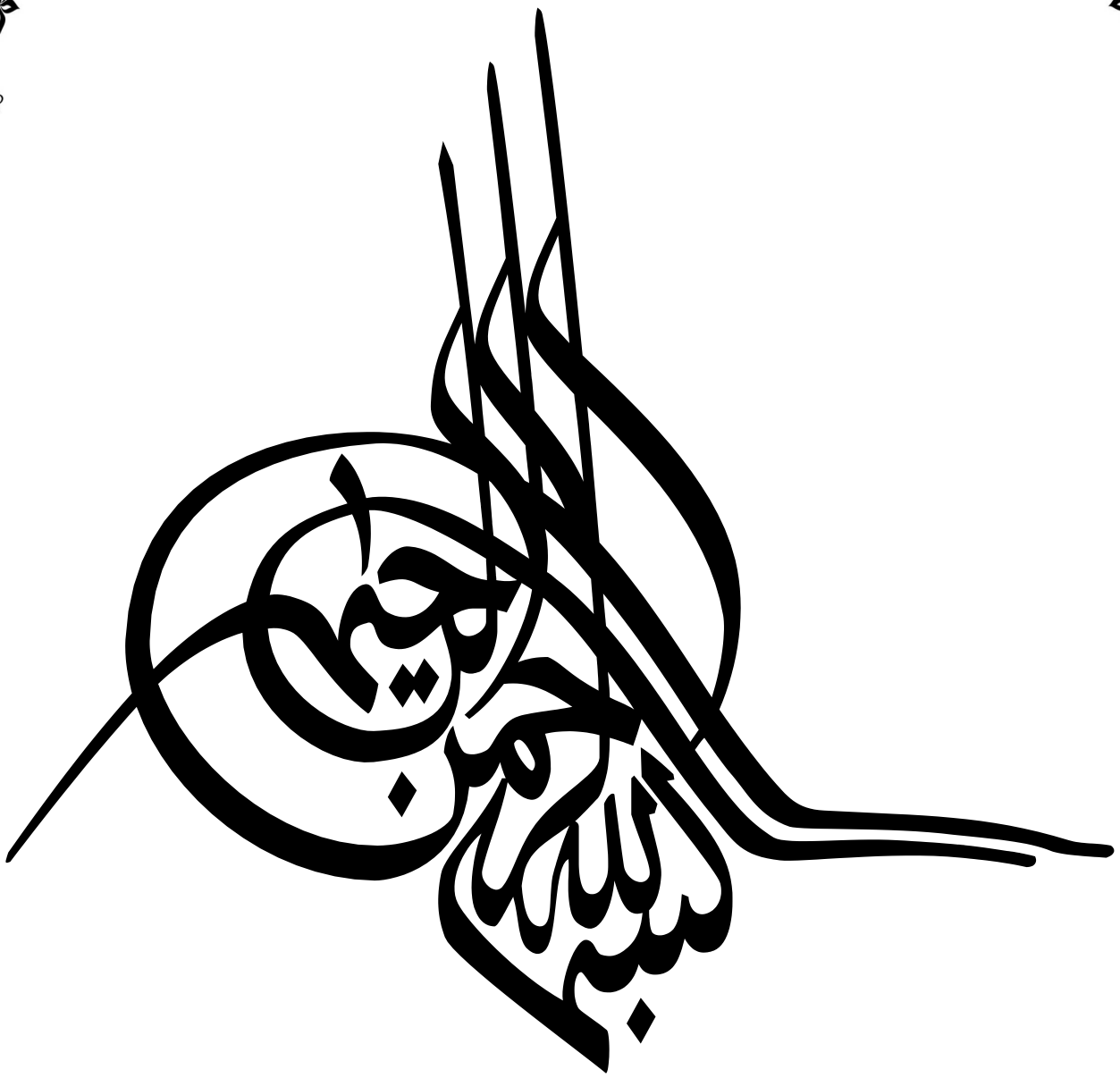
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذا العمل:

إلى معلم الأمة وإمام المرسلين، محمد صلى الله عليه وسلم.

إلى من جعلا مشواري العلمي ممكنا رمزا الالهام والعطاء، أبي وأمي حفظهما الله.

إلى كل إخوتي جمال، سعيد، بشير وأخواتي

فتيحة، نعيمة، فايزة، نورة، سوزان وكل العائلة صغيرا وكبيرا.

إلى أصحاب الفضل من أهل العلم علي، إلى جميع معلمي وأساتذتي في كل مراحل تعليمي، عرفانا بما بذلوه من جهد.

إلى كل طاقم كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة المسيلة.

إلى كل طموح خدم ويخدم وطنه وأمته بلا كلل ولا ملل.

إلى صديقاتي وأخص بالذكر عيشة على دعمها وتشجيعها لي.

وفاء

شكر وعرفان

أشكر الله عز وجل على توفيقه لي في إتمام وانجاز هذا العمل وتيسير سبيل البحث فيه

كما لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الدكتور "**زروخي الدراجي**"

الذي تفضل بالإشراف على هذه المذكرة، وقد مدني من منابع فكره وعلمه بالكثير

وكان لتوجيهاته وإرشاده الأثر العظيم في إخراج هذا الجهد، فله مني كل الشكر والتقدير

ولا أملك إلا أن أتقدم بشكري وامتناني أيضا إلى الأستاذ "**ضيف الله الخوني**"

على نصائحه القيمة ومساندته لي.

إلى كل من قدم لي يد المساعدة وحضاني باهتمامه وشجعني و وقف بجانبي طيلة إعداد هذه المذكرة

إلى كل من خصنا وقتا، أو أسدى نصحا، أو أبدى رأيا، أو قدم مشورة، فقلبي يجود لكم بالعرفان

ولكم مني جزيل الشكر وعظيم الامتنان، وجزاكم الله كل خير.

مقدمة

مقدمة:

شغل السؤال عن أصل الشر الفلاسفة منذ زمن قديم، وفي مختلف محطات الفكر الإنساني بداية من الحضارات الشرقية القديمة مرورا بالفلسفة اليونانية ووصولا إلى الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، وذلك أن مشكلة الشر هي في الحقيقة مشاكل، وليست مشكلة واحدة فالإشكال متعلق بشرور متعددة الأجناس لا شر واحد، و بهذا فإن موضوع الشر من أكثر المواضيع التي طرحها الإنسان على نفسه بصيغة السؤال، ومن المحتمل أن الأجوبة كانت تأتي متباينة عادة بحكم تأثرها بالحضارة والثقافة والوعي الفكري للمجتمعات المختلفة على مر العصور.

وقد ارتبط مفهوم الشر أساسا بالمسألة الأخلاقية، ومنه فإن الدعوة الأخلاقية قديمة قدم المجتمعات البشرية، فما اجتمعت مجموعة من الناس في أي مكان وفي أي فترة زمنية إلا وقد نتج عن هذا التجمع مبادئ للتمييز بين مفهومي الخير والشر، فطبيعة الأخلاق تهدف إلى البحث في أفعال الإنسان من حيث هو إنسان يهتم بتقرير ما ينبغي فعله وما ينبغي تجنبه لتنظيم حياة الموجود البشري، فقد احتلت مسألة القيمة مساحة عريضة من بحث المهتمين بالجوانب الإنسانية والاجتماعية عبر التاريخ.

لا شك أن البحث في الحياة الأخلاقية والكشف عما تنطوي عليه من آيات الخير وأسس الواجب من أوثق الأبحاث الجدية اتصالا بالفكر البشري، وقد فطن الناس للقيم الأخلاقية منذ زمن طويل، ولمسوا وجودها في حياتهم اليومية وفي ارتباط الواجب بهدف محمود هو الخير، وضرورة مجانبة شيء مذموم هو الشر، لذلك نظر فلاسفة الأخلاق إلى الحياة الإنسانية على أنها كفاح مستمر ضد الشر، وبحث متواصل عن الخير، وقد كرسوا معظم مجهوداتهم لبيان مسؤولية الإنسان عما يصدر عنه من أفعال ومن بين هؤلاء الفلاسفة نجد جون جاك روسو.

يعتبر روسو من أبرز ممثلي عصر الأنوار، فهو يجسد من خلال أعماله الرائدة الفيلسوف المهموم المنشغل بمشاكل عصره والمنخرط انخراطا فعالا في النقاشات السياسية، حيث وجه النقد اللاذع إلى مختلف الظروف التي كانت تعيشها فرنسا وأوروبا، فقد عاش روسو في عصر كثر فيه الظلم والاضطهاد، وقد ساهم في الكشف عن الكثير من أسرار المجتمع الذي عاش فيه، وتألم لما فيه من المفاسد، لهذا فقد حاول تقديم إصلاح أعمق في شيء مجالات الحياة.

ونجد أن موضوع أصل مشكلة الشر قد احتل مكانة هامة فقد أصبح محور اهتمام العديد من الفلاسفة وعلماء الأخلاق، بل وأضحى مجالا مركزيا للبحث والدراسة ذلك أن مشكلة الشر هي في الحقيقة سؤال عن سبب وجود الشر في هذا الكون، الأمر الذي استدعى اهتمامي بهذا الشأن في محاولة للكشف عن الخلفيات التي تقف وراء مصدر الشر وأصله الأول ، وكذا الوصول إلى بلورة متكاملة لطبيعة هذا الموضوع عند روسو، وقد كان اهتمامي بهذا الموضوع أساسا هو رغبة مني في جمع أفكار روسو المتعلقة بأصل مشكلة الشر هذه المشكلة التي مست مختلف جوانب الحياة والبحث فيها بحثا علميا من خلال مؤلفاته التي احتوت على تلك الأفكار بغية الوقوف على أهم الأسباب الكامنة وراء نشأة الشر وأصله الأول، وأخذ التدابير اللازمة للحد منها، هذا ما حفزني على أن أخصص بحثي لدراسة هذا الجانب، ودفعني ذلك إلى طرح الإشكال التالي:

إذا كان الله كلي الصلاح وهو خالق كل الموجودات، فكيف ظهر الشر في هذا العالم؟ وما هو أصل حدوثه عند روسو؟ وكيف نتجاوزه؟

إن مقتضيات البحث ومادته جعلتني أتبع الخطة المجسدة في العناصر التالية: مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

المقدمة كانت عبارة عن استهلال للعمل وهي بمثابة الإطار العام الذي ترتسم فيه ملامح الموضوع، وهذا من خلال الإحاطة بمعالمه الكبرى وأهميته ودواعي اختياري له، وإشكالية البحث والمنهج الذي سلكته.

أما بخصوص فصول البحث فقد اشتمل كل فصل على ثلاث مباحث، يحمل الفصل الأول عنوان "الإنسان الطبيعي عند روسو" ويعالج معرفة الإنسان وتحديد أصل الشر، وإبراز خيرية الله وتوافقها مع خيرية الإنسان بالإضافة إلى التطرق لخصائص ومبادئ خيرية الإنسان الطبيعي.

أما الفصل الثاني والذي خصصته للحديث عن "نشأة الشر" وقد عالجت فيه خروج الإنسان عن حالته الطبيعية وفساد أخلاق الإنسان المدني وكذا انهيار خيرية الإنسان الطبيعي.

وفيما يتعلق بالفصل الثالث فقد عرضت فيه "الإصلاح الأخلاقي للشر" وذلك من خلال تناول الإصلاح الأخلاقي لكل من السياسة والتربية والدين، والتطرق لنظرية الأخلاق عند روسو، لأعرج في نهاية هذا الفصل إلى نقد وتقييم أهم الأفكار الواردة في البحث، واستنتاج النتائج الحاصلة عن تطور الأفكار في نهاية كل فصل.

ولقد أنهيت عملي بخاتمة ضمنتها أهم الاستنتاجات التي تم التوصل إليها مما تم عرضه وتحليله في هذا البحث.

أما فيما يتعلق بالمنهج الذي اعتمدت عليه في معالجة هذا الموضوع فإني استندت إلى المنهج التحليلي؛ كونه يتناسب مع طبيعة الموضوع واتخاذه كوسيلة من أجل الفهم والإدراك، وقد اعتمدت عليه كذلك لرصد وفحص مضامين وأبعاد الموضوع في مصادر المؤلف، إذ توجهت إلى نصوصه بالقراءة والتحليل والربط فيما بينها لاستخلاص نظرته الفلسفية لهذه المشكلة.

وهذا العمل ما كان له أن يكتمل في صورته النهائية لولا اعتمادي على جملة المصادر والمراجع ومن بين المصادر أذكر: مقال في العلوم والفنون، إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، أصل التفاوت بين الناس، العقد الاجتماعي، دين الفطرة، وقد ساعدني في بحثي هذا العديد من المراجع.

كما يجب التأكيد على أن القيام بعمل أكاديمي وتقديم بحث منهجي ليس بالأمر الهين، فليس غريبا أن تعتريه مجموعة من الصعاب والعوائق، وهذا ما وقع لنا في هذا البحث، ولعل أشد المعوقات التي واجهتني والتي يمكن حصرها وتذليلها في:

- العقبات التي تبدأ في التنامي عند أول خطوة في جمع المادة العلمية التي إذا توفرت فإن مشكلة الترجمة تفرض عملا موازيا ينصب على مقارنة الترجمات أولا، ثم البحث في دقة المعاني التي تتطلب مراجع متخصصة ثانيا، فكان الجهد مضاعفا تشتت فيه الأفكار.

- صعوبة الحصول على المصادر الخاصة بهذا الموضوع وعدم وجود دراسات سابقة له .

لكن رغم هذه العوائق والعراقيل إلا أنه تم بعون الله إنجاز هذا العمل المتواضع الذي نأمل أن يكون قد ساهم ولو بالقليل في تحليل بعض الجوانب من فكر روسو، ولي أمل في أن يكون هذا العمل مساهمة في إثراء الدراسات الفلسفية.

الفصل الأول

الإنسان الطبيعي

عند جون جاك روسو

المبحث الأول: معرفة الإنسان وتحديد أصل الشر.

المبحث الثاني: خيرية الله كتوافق مع خيرية الإنسان.

المبحث الثالث: خصائص ومبادئ خيرية الإنسان الطبيعي.

الفصل الأول: الإنسان الطبيعي عند جون جاك روسو

يعتبر موضوع البحث في الإنسان ودراسة طبيعته الأصلية أحد الموضوعات التي يبدو البحث فيها غاية في الصعوبة، وعلى درجة كبيرة من التعقيد إلا أنه في المقابل يعتبر غاية في الأهمية حيث أصبح مجالا لدراسة العديد من الفلاسفة والعلماء ورجال الدين، ومن بين الفلاسفة الذين اهتموا بموضوع البحث في الإنسان نجد روسو[*] J-J-Rousseau (**1712– 1778**)، وقد بنى نظريته السياسية والأخلاقية والتربوية حول مفهوم الإنسان الطبيعي، مؤمنا بالطبيعة الخيرة لهذا الأخير، ومن ثم فقد احتلت معرفة الإنسان مكانة في أبحاث روسو، وقد كان هدفه من ذلك معرفة وتحديد مصدر الشر وأساسه، فما المقصود بالإنسان الطبيعي في نظر روسو؟ وفيما يتجلى أصل الشر ومصدره الأول؟ وإلى أي مدى يمكن القول أن خيرية الله كتوافق مع خيرية الإنسان؟ وما هي خصائص ومبادئ خيرية الإنسان الطبيعي؟.

المبحث الأول: معرفة الإنسان وتحديد أصل الشر.

معرفة الإنسان معرفة صحيحة شرط لابد منه لتحديد مصدر الشر وأصله الأول، لهذا فإن جل اهتمامات روسو وتأملاته تتمحور حول أهمية معرفة الإنسان ودراسته قصد الوقوف على أصل هذه المشكلة ومن ثم العودة بالإنسان إلى حالته البربرية السعيدة، فلا يمكن لأي فلسفة تحديد أصل هذه المشكلة ما لم تتخذ من معرفة الإنسان أساسا لذلك.

[*] – جون جاك روسو (1712-1778) أديب وفيلسوف فرنسي، ولد في جنيف من عائلة فرنسية الأصل على المذهب البروتستانتي، أرسله والده إلى أحد أصحاب المهن، لكي يتعلم مهنة الحفر على الخشب، وبعد ثماني سنوات التقى في سافوا سيدة أمنت له بعض الاستقرار، فاستطاع أن يتعلم الموسيقى واللاتينية، وقد أعلنت أكاديمية ديجون (Dijon) عن مسابقة موضوعها: "هل ساهمت الفنون والعلوم في انحطاط الأخلاق؟" فأحرز الجائزة، من أهم مؤلفاته: مقال في العلوم والفنون، مقال في أصل التفاوت بين الناس، العقد الاجتماعي ،إميل. (انظر: جميل الحاج: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 2000، ص 266).

أولا: معرفة الإنسان:

يعين روسو في مستهل خطابه الثاني حول أصل التفاوت بين الناس بدقة تامة موضوع أبحاثه ودراسته حيث يقول: "**وإنما عن الإنسان سأتحدث**"[1]، فبعد أن كشف عن أحوال الإنسان، وما شهده هذا الأخير من بؤس وشقاء وعبودية، عرف أنه أجدر موضوع ينبغي أن تحوم حوله معظم الدراسات والأبحاث، ونجد أن روسو يعطي أهمية لمعرفة الإنسان ذلك أن معرفة هذا الأخير شرط ضروري لتحديد أصل الشر ومصدره، بل وقد عد الإنسان نفسه محور الوجود، وهي الحقيقة التي حاولت الكنيسة تظليلها لفترة طويلة، ومن هنا فروسو حاول التركيز في بحوثه على معرفة الإنسان والغاية من ذلك معرفة أصل الشر، ومن هنا فما مصدر الشرور الحاصلة في الطبيعة الإنسانية؟.

ينطلق جون جاك روسو من تحديده للإنسان الطبيعي من معطيات افتراضية تخمينية، ولكن النتائج التي توصل إليها يعتقد أنها صحيحة، لأنها مبنية على مسلمات صحيحة، وهي عكس ذلك. [2]

فروسو في مختلف بحوثه أدرك أن الموضوع الذي يخوض فيه غاية في الصعوبة على قدر ما هو غاية في الأهمية إنه يخص معرفة الإنسان، الذي اعتبر نقطة انطلاق ومحور دراسات العديد من الفلاسفة عبر العصور، يقول روسو: "**أكثر المعارف الإنسانية نفعا و أقلها تقدما من بينها جميعا إنما ما بدا لي على أنه المعرفة بالإنسان ... لذا أراني أعد موضوع هذا الخطاب من أجل المسائل فائدة وأجدرها ببحث الفلسفة، كما أرى يا لسوء حضنا أن هذه المسألة الشائكة هي من أصعب المسائل التي يتعرض لها الفلاسفة لحلها**".[3]

---

[1] – جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم، تدقيق وتعليق وتقديم عبد العزيز لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2011، ص 63.

[2] – زروخي اسماعيل: دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2001، ص 219.

[3] – جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم ،ص 51.

ومن هنا فروسو كان يحاول إقامة مذهب كامل في الإنسان، فقد انطلق من نظرية مماثلة للنظريات التي افترضها غيره من العلماء بخصوص ما تعلق بتفسيراتهم لتكوين العالم، وإن كان يعرض نظريته بمثابة فرضية فقط إلا أنه قد بنى عليها جميع آرائه وتصوراته .

بنى روسو نسقه الفلسفي والسياسي من خلال رفض فكرة هوبز[*] Thomas Hobbes (1588 -1679) القائلة بأن: الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، يريد إلحاق الضرر به دائما، أي أنه شرير بطبعه، وأن الحالة الطبيعية قد امتازت بحرب الكل ضد الكل . أما فيما تعلق بجون لوك[**] John Loke (1632- 1704)، فقد رفض روسو المبدأ الذي بنيت عليه فلسفته وهو رفض المبادئ الفطرية، فروسو قد ذهب إلى العكس، مؤكدا على وجود الفطرة في الإنسان كما هي موجودة في الحيوان.

ومن خلال عرض فكرتي كل من هوبز وجون لوك نجد بأن رأي روسو يقف على العكس من ذلك مؤكدا على أن حالة الطبيعة، كانت حالة يسودها الاستقرار والسعادة والهناء، وانتشر فيها الخير والفضيلة.

وبناء على ذلك كان روسو يرى أن الإنسان الطبيعي في الحالة الطبيعية كان متوحدا في الغابة، يعيش في حالة من العزلة، ولم يكن في حاجة إلى غيره من البشر، ولا يحسن النطق، بل وكان في غنى تام عنه، يعيش شتاتا في الغابات بين الحيوانات، بدون أي حرفة ولا عمل وتنبثق رغباتهم جميعا عن حاجاتهم الجسدية كالطعام والأنثى والراحة ،ولما كان الإنسان المتوحش محروما من جميع أنواع المعارف فكان يعتمد على الغريزة ،ليس له مسكن ثابت أو أسرة، والأطفال ينفصلون عن أمهاتهم حال مقدرتهم

[*] – هوبز (1588–1679) فيلسوف انجليزي ومفكر سياسي كبير، ولد في ستيوريت في 1588، حصل على شهادة التخرج في 1608، وبعدها صار مربيا خاصا، كرس اهتمامه للدراسات الكلاسيكية ، توفي عام 1679. (انظر:عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1984، ص 554).

[**] – جون لوك (1632–1704) ولد عام 1632 في مدينة رنجتون في انجلترا ثم رحل إلى فرنسا سنة 1672 وأقام فيها حتى عام 1679، ولما عاد إلى انجلترا كان موضع ريبة من عائلة ستيوارت الحاكمة، والتجأ إلى هولندا وظل بها إلى عام 1688، وفي ذلك العام عينه غليوم ووارنج معتمدا للمملكة للتجارة والمستعمرات، ومات عام 1704. (انظر:جون لوك: الحكومة المدينة بقلم جون لوك وصلتها بنظرية العقد الاجتماعي لجون جاك روسو، تر: محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر، د ط، د م، د ت، ص 05).

على تأمين قوتهم بأنفسهم "**وذلك إلى أن الأولاد لا يبقون مرتبطين في الأب إلا للزمن الذي يحتاجون فيه إليه لحفظ أنفسهم وتنحل الرابطة الطبيعية عند انقطاع هذا الاحتياج، ويعود الأولاد إلى الاستقلال بالتساوي عندما يحلون من الطاعة الواجبة عليه نحو الأب ويحل الأب من رعاية الأولاد الواجبة عليه، وهم إذا ما استمروا على البقاء متحدين عاد هذا لا يكون طبعا، بل طوعا، ولم تدم الأسرة نفسها إلا عهدا**"[1].

من خلال ذلك نستنتج بأن الأسرة هي أول المجتمعات الطبيعية، داخل الأسرة يوجد الأبناء والآباء، والأبناء يكونون في حاجة ماسة إلى رعاية آبائهم، وهذه الأسرة تظل طبيعية وتشكل مجتمع طبيعي، قائمة على مبدأ الإرادة، بل وقائمة على مبدأ تطوعي بمعنى كل واحد يتطوع أن يكون في هذه الأسرة دون مقابل، وهذا ما يسمى بالعقد.

ثانيا: تحديد أصل الشر:

يتعين أن روسو قد أعطى أهمية كبيرة لمعرفة الإنسان، مؤمنا بالطبيعة الخيرة لهذا الأخير، وقد عده محورا للعديد من تأملاته، وكانت غايته من ذلك معرفة أصل الشر ومصدره الأول. فما هو مصدر الشرور الحاصلة في هذا العالم؟

[1] – جون جاك روسو: العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية، تر: عادل زعيتر، مؤسسة الأبحاث العربية، ط 2، بيروت، 1995، ص30.

1- ظهور الملكية:

لقد عاش البشر وهم على جهل بالملكية ويكاد التباين يكون معدوما في حالة الطبيعة ،وقد تميزت بالهدوء والاستقرار، إذ لا مجال لوجود الشر في تلك الحالة ، غير أن ظهور الملكية الفردية قد شكل أهم مظهر من مظاهر انحراف الحضارة فهي السبب المباشر في بداية نشأة جميع الشرور الحاصلة في الكون.

يؤكد روسو بأن البشر في حالة الطبيعة لا تجمع بينهم أية علاقة أخلاقية أو واجبا ت مشتركة، فالإنسان الطبيعي لم يكن محتاجا إلى معونة الآخرين لأنه كان يستطيع أن يكفي نفسه بنفسه كما أنه في حالة الطبيعة لم يكن هناك تربية ولا تقدم إذ "**كانت الأجيال تتعاقب لكن كل شيء يبقى على حاله كما في الماضي، إذ كان على كل واحد أن ينطلق من جديد من نقطة الصفر، وقد تصرمت القرون تلوى القرون في جلافة العصور الأولى، وحتى بعد أن شاخ النوع كان الإنسان لا يزال طفلا**"[1].

ومن خلال ذلك نلاحظ أن حالة الطبيعة تتسم بمساواة حقيقية بين الأفراد، إلى درجة أن التفاوت بينهم يكون معدوما، فحالة الطبيعة لا تقر بوجود فوارق بين الأفراد، فهي حالة سلم وسعادة واستقرار، خالية من أي صراع، وقد اتسمت بالبساطة والعزلة، كان الإنسان يتمتع فيها بحقوق كانت تسمى بالحقوق الطبيعية، وقد تمثلت في الحرية والمساواة.

أ- الحرية: روسو في كتابه "العقد الاجتماعي" يستهله بعبارة شهيرة "**يولد الإنسان حرا ،ويوجد الإنسان مقيدا في كل مكان وهو يظن أنه سيد الآخرين**"[2]، ومن هنا فالحرية من طبيعة الإنسان، لذا يجب تخليصه من قيوده جميعها فقد ولد حرا ،وله الحق في أن يسلك كما يشاء إذ لا وجود لقوانين طبيعية تجعل من الإنسان خاضع لغيره، وتعني الحرية عند روسو أن يملك الإنسان قدرة على اختيار ما يريد، وقد

[1] - نقلا عن: ف فولفين: فلسفة الأنوار، تر: هنرييت عبودي، مراجعة، جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2006، ص 213.

[2] - جون جاك روسو: العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية، تر: عادل زعيتر، ص 29.

سماها بالحرية البهيمية وهي تختلف عن الحرية الموجودة في المجتمع المدني، ولا ينبغي التنازل عنها حتى بعد نشوء دولة القوانين.

ب– المساواة: يرى روسو أن الأفراد في حالة الطبيعة لا يعرفون معنى التفاوت فقد عاشوا وفق مبدأ المساواة، فكان كل إنسان مساو لإنسان آخر ولم يكن للطبقية أي أساس في الوجود.

إن إنسان الطبيعة قد اتصف بالخيرية، باعتبار أنه عاش وهو يجهل فكرة الملكية الخاصة، حتى أن البشر عاشوا تلك المرحلة على درجة من المساواة مما نفى تماما وجود فوارق بينهم غير أنه ومع ظهور الملكية العقارية خطى الجنس البشري خطوته الأولى نحو الانحطاط ومن ثم فقد هيأت لتغلغل التفاوت بين الناس يقول روسو في هذا الصدد: " **كان الإنسان عندما يقتطع لنفسه قطعة من الأرض، يقول عنها، "هذه ملكي" ولا يلقى من الناس معارضة، معبرا عن الأساس الحقيقي للمجتمع المدني، فكم من جرائم ارتكبت وحروب قامت و ألوان من الفزع، والإرهاب انتشرت ،كان يمكن أن تتجنبها لو أن فردا واحدا وقف محذرا إخوانه من هذا المدعي الأفاك، بأن ثمار هذه الأرض إنما هي ملك لنا جميعا ،وأن الأرض نفسها ليست مملوكة لأحد**"[1]، ومعنى ذلك أن مؤسس المجتمع السياسي والإنسان الذي جلب الشرور العظيمة للبشرية هو أول إنسان قال "هذه الأرض تخصني"، كما أن فكرة التملك لم تظهر إلا نتيجة تطور بطيء وطويل يقول روسو: "**لم تتكون فكرة الملكية هذه دفعة واحدة في العقل البشري فقد احتاج الإنسان إلى الكثير من التقدم، و إلى اكتساب قدر لا بأس فيه من المهارات العملية والمعارف ... حتى يصل إلى هذه النهاية الأخيرة للحالة الطبيعية**"[2]، بمعنى أن فكرة الملكية مرتبطة بفكرة التقدم، فهي لم تنشأ هكذا، بل ارتبطت بمختلف التطورات والمهارات العلمية وكذا المعرفية .

[1] – جون لوك: الحكومة المدينة بقلم جون لوك وصلتها بنظرية العقد الاجتماعي لجون جاك روسو، تر: محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر، د ط، د م، د ت، ص 113.

[2] – نقلا عن: ف فولفين: فلسفة الأنوار، ص 217.

2- الاختلال الناشئ من الملكية:

لقد أدى ظهور الملكية إلى إحداث تغيير في حياة البشر، وهذا التغيير في نظر روسو يدين بوجوده لاكتشاف الزراعة ولابتكار صناعة استخراج المعادن، وكان لابد من أن تؤدي زراعة الأرض إلى تقاسمها، فالعمل في الأرض خول في البدء الحق في غلتها ومن ثم الحق في الأرض نفسها، ومن هنا اعتبرت الملكية مؤسسة تاريخية، وهي عامل سلبي في تاريخ البشرية، فقد ظهر الطمع وتولدت اللامساواة وصراع المصالح وظهور المنافسة بين الأفراد يقول دانينج Dynning: " **ولما تزايد البشر، عجلت ظروف التربة، والمناخ، وسائر العوامل الجغرافية الأخرى على التفاوت في السلوك والعادات... فتميز سكان المناطق الساحلية بالصيد بحرا، بينما عمل سكان الغابات على الصيد برا، ومع اكتشاف النار صدفة، راح الناس يستخدمونها، فظهرت الآلات الحجرية والمعدنية، وتحرك التقدم الاقتصادي، وشيد الأكواخ واتخذها الناس مأوى ثابتة، وساعد هذا على تكوين العائلات، وتنظيم الملكيات وبدأ ناقوس الموت يعلن نهاية المساواة بين الناس، وقيام التنظيمات الاجتماعية، فزادت العلاقات بين الناس وظهرت أفكار المنافسة والتفضيل والتفوق، فذاعت الشرور، وانعدم التسامح بين الناس**"[1]، ففكرة العائلة هي التي أدت إلى ظهور الملكية، حيث بدأ الناس يرون أن في اجتماعهم على شكل عائلات ينفعهم، ثم ازدادت العلاقات بين الناس، غير أن التعدين والزراعة قد عجلا الطريق نحو اللامساواة والبؤس والشقاء، يقول روسو: "**إن تكوين جميع الشرور كان أولى نتائج التملك**"[2].

وهذا يعني أنه ما إن ظهرت الملكية حتى ظهر التفاوت والطبقية، وترتب على ذلك الشرور كالحسد والبغض، فانتشر بذلك الفساد، وقد عرف الناس الملكية "**بأنها شيء حقيقي غير أن حاجاتهم الخاصة**

[1] – نقلا عن: محمد علي محمد، علي عبد المعطي محمد: السياسة بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية، د ط، بيروت، 1985، ص 163.

[2] – نقلا عن: مختار عريب: الفلسفة السياسية من المفهوم الكلاسيكي إلى البيو تيقا، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، دط، دم، دت، ص 163، 164.

هي شيء حقيقي أيضا، لا وجود لحكم بين الدعاوى المختلفة ولا وجود لقانون طبيعي يحلها لأن الموقف من صنع الإنسان وليس طبيعيا وتنشأ حالة الحرب بالضرورة بين الأغنياء والمحرومين".[1]

ومن خلال ذلك نرى بأنه نتج عن انتشار الزراعة، واكتشاف التعدين تحول كبير في حياة الإنسانية، فقد نجم عن زراعة الأرض تقسيمها ومن ثم توزيعها، ونجم عن التعدين أن الناس الذين كانوا يعملون فوق الأرض أصبحوا ملزمين على أن يعملوا في باطنها، وأدى بذلك التفاوت الطبيعي في القوة والكفاءة إلى تفوق وسيطرة المهرة والأكفاء، فبظهور كل من الزراعة والتعدين، أصبح كل فرد بحاجة إلى عون الآخر وأدى التعاون بينهم إلى التفاوت في الكفاءة من جهة والقوة من جهة أخرى، فكان النصيب الأكبر من العمل لصالح الأقوى، فظهر الغني والفقير وهما أصل كل أنواع التفاوت والشرور، فقد دار صراع بين حق الأقوى وبين حق شاغل الأرض فأصبح المجتمع الناشئ مسرحا لحرب طاحنة، ذلك أن: "**الهمجي يعيش في نفسه، والإنسان المتمدن يعيش خارج نفسه دائما فلا يعرف إلا أن يعيش في نفوس الآخرين**"[2]، بمعنى أن الإنسان في حالة الطبيعة كان يعيش لنفسه، أما في حالة المدينة فقد أصبح يعيش للآخرين، مستعبد لهم، همه الوحيد هو المال والشهرة فيتحول الإنسان بذلك إلى إنسان مغرور، ومليء بالشرور يقول روسو :"**أن ثمة ثورة مؤسفة أدخلت الصناعة المعدنية والزراعة، فالحبة هي رمز شقائنا، وأوربا هي أتعس قارة لأن لديها معظم الحب ومعظم الحديد، والقضاء على الشر يلزم فقط التخلي عن المدينة لأن الإنسان خير بطبيعته، والإنسان البدائي، حين يأكل يعيش في سلام مع الطبيعة كلها ويكون صديقا لجميع أقرانه من المخلوقات**"[3].

---

[1] – ليوشتراوس وجوزيف كروبسى: تاريخ الفلسفة السياسية من جون لوك إلى هيدغر، تر: محمد سيد أحمد، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، ج2، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2005، ص 146.

[2] – جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم، ص 80.

[3] – نقلا عن: برتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية، تر: محمد فتحي الشنيطي، الكتاب 3، المصرية العامة للكتاب، د ط، د م، 1977، ص 292.

فأصل وجود المجتمع المدني، وضروب التفاوت المترتبة عليه في الملكية الخاصة، فبعد أن كان الناس أحرارا مستقلين، أصبحوا اليوم نتيجة تعدد مطالبهم وحاجاتهم خاضعين لغيرهم، وأصبح الاهتمام بتكوين الثروات لمجرد المباهاة ومنافسة الآخرين، لا من أجل استخدامها لغرض معين.

يرى روسو أنه لما كانت حاجات الإنسان تتميز بالاعتدال في تلك المرحلة، فقد جاء اختراع الأدوات الجديدة التي تخفف عناء الجهد والتعب، وظهرت الكثير من الفنون كالغناء والرقص وبدأت ملامح الفروق الجسمية والفكرية تظهر، فكانت بذلك الخطوة الأساسية نحو التفاوت، ولما كان الناس يتصلون ببعضهم البعض، ولم يكن ثمة وجود للقوانين بعد، بدأت الشفقة الطبيعية تضعف في حالة الطبيعة نتيجة للصراع القائم بين حب الذات من جهة والشفقة من جهة أخرى، فيغلب حب الذات في هذه المرحلة ومن ثم فإن الذي يدفع بالناس إلى أن يكونوا مجتمعا مدينا هو تأسيس الملكية الفردية، يقول جون جاك روسو: "**والبشر ما داموا راضين بأكواخهم ذات البناء الخشن... لا يتعاطون من الأعمال إلا ما يستطيع الواحد منهم القيام به بمفرده، ومن الصنائع إلا ما لا حاجة فيه لتعاون الكثير من السواعد، فقد عاشوا أحرارا أصحاء محبين للخير سعداء ما استطاعوا بطبيعتهم واستمروا يتمتعون فيما بينهم بنعيم معاشرة تقوم على الاستقلال، ولكن ما إن احتاج إنسان لمعونة إنسان آخر، وما أن تبين أنه من النافع لشخص واحد يكون له زاد شخصين اثنين، حتى اضمحلت المساواة وتسربت الملكية بينهم، وصار العمل ضروريا وتحولت الغابات الواسعة حقولا باسمة، وجب أن تروى بعرق البشر، ولم تلبث العبودية ولم يلبث البؤس ينبتان وينموان بنمو الحصاد**"[1].

وذلك يعني أن اكتشاف الملكية الفردية، يمثل أهم مظهر من مظاهر انحراف الحضارة فهي السبب الرئيسي في ظهور التفاوت الاصطناعي بين البشر، وظهور فكرة الطبقية، فأصبح في المجتمع الواحد فقراء

[1] – جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: عادل زعيتر، مؤسسة الأبحاث العربية، ط2، بيروت، 1995، ص76.

وأغنياء، فظهرت العداوة مما ترتب عليه نزعة شريرة لإيذاء الغير والإضرار به بدافع الحقد والغيرة، ومن هنا بدأت تظهر الخصومة والمنافسة من ناحية، وتضارب المصالح من ناحية أخرى، وفي هذا الصدد يقول روسو: " **هناك المنافسة والمزاحمة من جهة أولى وهناك تضارب المصالح والرغبة الخفية المستديمة في الاستئثار بالمنفعة على حساب الغير من جهة ثانية، والحال أن جميع هذه الشرور هي النتيجة الأولى للملكية والحاشية الملازمة للتفاوت الناشئ**"[1].

من هنا نستنتج بأن الملكية هي السبب الرئيسي في وجود الشر، وانتشار الصفات اللاأخلاقية المنافية للطبيعة الإنسانية وعلى رأسها التفاوت والطبقية وهنا نجد روسو يميز بين نوعين من اللامساواة: اللالمساواة الطبيعية الناجمة عن تباين الأفراد بالولادة وبين اللامساواة التي أقامها البشر بأنفسهم، ولم يولي روسو في الحالة الطبيعية أية أهمية للفوارق بين البشر، يقول روسو: " **من السهل على المرء أن يتبين كيف أنه لا بد من البحث عن الأصل الأول للفروق التي تميز بين البشر في تلك التغييرات المتتابعة التي طرأت على التكون الإنساني، فالرأي الشائع أنهم كانوا فيما بينهم متساوين بالطبع المساواة عينها التي بين الحيوانات**"[2]، وقد أراد روسو أن يبين من خلال ذلك كيف أن اللامساواة التي لا تكاد أن تكون محسوسة في الحالة البدائية، مع التقدم المتعاقب تزداد حدة، وقد تفاقمت بذلك الفوارق بين البشر، مما مهد لظهور الرذائل كالاعتزاز بالنفس والازدراء من جهة والحياء والحسد من جهة أخرى، فنشأت بذلك بذور الانتقام والعداوة، وأقر قانون التملك والتفاوت، وبهذا فقد الإنسان أهم حق من حقوقه وهو المساواة.

وعليه نلاحظ بأن الاجتماع شر، فالإنسان صار شريرا منذ أن أصبح كائن اجتماعي، وهكذا تبقى الملكية هي مصدر كل فساد وشر ويتجسد هذا بوضوح في كونها السبب في ظهور التفاوت والطبقية.

[1] – جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم، ص 132.

[2] – نفسه، ص 52.

المبحث الثاني: خيرية الله كتوافق مع خيرية الإنسان.

شكل روسو نظريته حول مفهوم الإنسان الطبيعي ذلك المفهوم الذي اقترن بالخيرية، وهذه الأخيرة نابعة بالضرورة عن مصدر ثابت وهو الله فخيرية الإنسان تفيض عن خيرية الله المطلقة.

أولا: عصمة الوجدان الخلقي عند روسو:

ينطلق جون جاك روسو في نظريته حول الإنسان الطبيعي من أنه خير بطبعه، وتلك الخيرية نابعة عن مصدر ثابت وهو الله، وقد زود الإنسان بمبدأ فطري متأصل في طبيعته الإنسانية، وهذا ما يعرف بالضمير يقول روسو: "**إن في قرارة النفوس مبدأ فطريا للعدل والفضيلة نقيس إليه أفعالنا وأفعال سوانا من الناس، ونحكم عليها بالخير أو السوء وهذا المبدأ هو الذي أسميه الضمير**"[1]، بمعنى أن الضمير موجود في أعماق قلوبنا، وهو مبدأ فطري داخلي في الإنسان، كما أنه دليل أكيد ومعصوم يجب أن نستعين به في الحكم على أفعالنا، ذلك أنه يجب أن نصغي إلى صوت الضمير فينا، فبواسطته نستطيع التمييز بين الخير والشر، بين الفعل الحسن والفعل القبيح.

الضمير الأخلاقي ثابت، ومبادئ الأخلاق واحدة في كل مكان ومنه فالإنسان يتخذ من الوجدان موجها لسلوكاته وأفعاله، فالضمير مصدر للقيم والمبادئ الأخلاقية، فهو الذي يجعلنا نهب نحو فعل الخير وننفر من فعل الشر، بمعنى أنه المبدأ الذي بواسطته يكون الإنسان فاضلا وخيرا، ونجد روسو في مناجاته الشهيرة للضمير التي يخاطبه فيها قائلا: "**الضمير !الضمير ! غريزة ربانية وصوت علوي لا يخفت. هاد أمين لكائن جاهل محتاج، كما أنه نبيه حر. بالضمير يميز الإنسان الخير من الشر ولا يخطئ كما لو كان في مقام**

[1] – جون جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، تر: نظمي لوقا، تقديم أحمد زكي محمد، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، دت، ص 213.

الرب . لولا الضمير لما أحس بأي تفوق على الحيوان، سوى موهبة بئيسة تدفعه من زلة إلى أخرى بواسطة نظر بلا ضوابط وعقل بلا مبادئ"[1].

وما يمكن أن نستشفه من عبارات روسو هو أن الضمير غريزة إلهية مقدسة، موجودة في أعماق قلوبنا ومن هنا وجب على الإنسان أن يطيع ضميره الذي هو صوت الله وذلك تقديسا له، وقد أكد روسو أن تلك الغريزة ملازمة للإنسان منذ ولادته، وهي التي يتفرد الإنسان بامتلاكها عن الحيوان ذلك أن " **الضمير الأخلاقي في الإنسان يميزه من البهائم تمييزا حاسما**"[2]، وبواسطة الوجدان يمتلك القدرة على التمييز بين الخير والشر حدسيا دون حاجة لأي معطيات حسية أو عقلية، وتتحدد وظيفة الضمير أساسا في هداية الناس نحو السلوك السوي الذي يستحسن أن يتبعوه بل ويفرض عليهم إتباع أوامره ونواهيه ونجد روسو يؤكد على ذلك بقوله: " **إن أفعال الضمير ليست أحكاما بل هي مشاعر، وفي حيز تأتينا جميع أفكارنا من الخارج، توجد المشاعر التي تتقوم بها تلك الأفكار في داخلنا. وبواسطة هذه المشاعر وحدها نعرف التوافق أو التنافر الذي يوجد بيننا وبين الأشياء التي ينبغي أن نقبل عليها أو ننفر منها**"[3].

بمعنى أن الوجدان خير دليل لأفعالنا وسلوكاتنا، فهو الذي يحدد لنا ما يجب فعله وما لا يجب فعله، فهو مصدر كل فعل خير وفاضل، ذلك أن " **معرفة الخير ليس معناها بالضرورة محبة الخير ومعرفة الخير ليست فطرية في الإنسان ولكن بمجرد أن يعرف عقله الخير يجنح به ضميره إلى محبة ذلك الخير، وهذا الشعور هو الفطري فيه**"[4].

---

[1] – جون جاك روسو: دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا، تر: عبد الله العروي، الدار البيضاء، ط1، المغرب ، 2012، ص 78، 79.

[2] – جون جاك روسو: إميل أو تربية، الطفل من المهد إلى الرشد، ص 209.

[3] – نفسه، ص 214.

[4] – نفسه، ص 215.

أي أن ذلك المبدأ الداخلي الذي نحمله في ذواتنا، وصوت الطبيعة الذي أودعته في نفوس البشر كافة دون تمييز هو السبب الرئيسي في قيام حياة أخلاقية تجنب الإنسان الوقوع في الخطأ، فقد أكد روسو أن معطيات الضمير هي مصدر الفضائل الأخلاقية، وبما أن الضمير الأخلاقي فطري فينا فهو مبدأ ثابت وواحد لدى جميع الناس، وهو يهدف إلى توحيد القيم الأخلاقية أي جعلها واحدة دون اعتبار للزمان والمكان، ذلك أن المبدأ الأخلاقي – حسب روسو – يتصف بالإطلاقية، فهو مجرد من قيود الزمان والمكان ومن أي مصلحة مادية يقول روسو: " **أنظروا إلى جميع أمم العالم، وراجعوا كل التواريخ، بين كل الثقافات وبين كل الديانات الإنسانية العجيبة، بين هذه السلوكات والأنماط الخارقة التنوع ستجد في كل مكان نفس أفكار العدالة والشرف، نفس المبادئ الأخلاقية، نفس مفاهيم الخير والشر**".[1]

ومن خلال ذلك فروسو يؤكد على عصمة الضمير الأخلاقي، وكونه واحد ومشترك بين جميع البشر فهذا يعني أنه لا اختلاف بين القيم الأخلاقية، فهي واحدة ولا تختلف من شخص لشخص آخر، ففي كل مكان وزمان نجد نفس المبادئ كالعدل، الصدق، ونفس مفاهيم الخير والشر، وكنتيجة لذلك فإن مبادئ الأخلاق واحدة في كل مكان، ومبادئ الخير والشر هي نفسها حيثما ذهبنا .

يسعى روسو إلى تجريد الفعل الخلقي من أي إلزام أخلاقي أو أي مصلحة مادية، فروسو لا يريد أن يكون الإنسان فاضلا من أجل أن ينال جزاء على ذلك أو خوفا من عقاب آت من مصدر خارجي، فالإنسان الذي يقدم على فعل خلقي طمعا بمنفعة أو مصلحة مادية فهذا قد يسيء

[1] – J-J- Rousseau: Emile ou l'éducation, préface par: MJ labbe, librairie classique Eugène belin, paris, 1883, p 149.
"Jetez les yeux sur toutes les nations du monde, parcourez toutes les histoires: parmi tant de cultes inhumains et bizarres, parmi cette prodigieuse de mœurs et de caractères, vous trouvez partout les mêmes idées de justice et d'honnêteté, partout les mêmes principes de morale, partout les mêmes montions du bien et du mal".

للفضيلة، ولا يمكن أن نقول عنه بأنه خلقي، وهذا ما أكد عليه كانط[*] Emmanuel Kant (1724-1804) من خلال فكرة "الواجب من أجل الواجب" فالإنسان الخير والفاضل هو الذي يقدم على الفعل الخلقي بدافع الواجب، وليس الغرض من ذلك تحقيق مصلحة مادية، فروسو يرى أن الذي يعمل بنية تحقيق ربح مادي يخرج عن دائرة الأخلاق وهذا يعني أنه "**إذا كان الخير خيرا حقا، فيجب أن يكون في أعماق قلوبنا كما في أعماق أفعالنا، والمكافأة العادلة هي أن نشعر به عندما نقوم به**"[1] ذلك أن:"**الذي يعمل بحسب ضميره يشعر بلذة معنوية كبرى وبرضى كامل عن نفسه أمام نفسه؛ والذي يعمل ضد ضميره يشعر بوخز ضمير حاد وباحتقار لنفسه مؤلم قد يقوده إلى الانتحار، لا شك في أن من يطيع ضميره لكي يحظى باللذة المعنوية ويتجنب وخز الضمير يعمل مدفوعا بمصلحته؛ ولكن هذه المصلحة ليست هنا، مادية ولا تجارية، بل روحية، وفاضلة**".[2]

أي أن الوجدان هو المبدأ الذي يجب العودة إليه في الحكم على أفعالنا سواء كانت أفعال مستحسنة أو أفعال مستهجنة، باعتباره جوهرا ثابت وغير خاضع للظروف والأهواء، فيجب أن نعود إليه دائما ليوجهنا نحو ما يجب أن نفعله يقول روسو: "**ما علي إلا أن أستشير ذاتي فيما أريد أن أفعل فكل ما أشعر به أنه خير كان خيرا وكل ما أشعر به أنه شر كان شرا إن الوجدان خير حلال لمشاكل الوجدان**".[3]

---

[*] – كانط (1724-1804) ولد في بروسيا الشرقية، في معهد فريدريك تعلم الكلاسيكيات الرومانية، وقد عين مدرسا في الجامعة، فألقى دروسا في المنطق والميتافيزيقيا والرياضيات وعلم الأخلاق، واللاهوت الطبيعي.(انظر:عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، ج2، ص 269، 270).

[1] – J-J- Rousseau: Emile ou l'éducations, p 147.

"s'il est vrai que le bien soit bien, il doit l'être au fond de nos cœur comme dans nos œuvres ;et le premier prix de la justice est de sentir qu'on la pratique".

[2] – أندريه كريسون: روسو حياته– فلسفته– منتخبات، تر: نيه صقر، منشورات عويدات، بيروت، ط4، 1988، ص 76، 77.

[3] – J-J- Rousseau: Emile ou l'éducations, p 146.

"je n'ai qu'a me consulter sur ce que je veux faire: tout ce que je sens être bien, tout ce que je sens être mal est mal: le meilleur de tous les casuistes est la conscience".

من خلال ذلك نستنتج أن الضمير هو مصدر لقيمنا ومبادئنا الأخلاقية وباعتباره غريزة تولد مع ولادة الإنسان، فهو يملك القدرة على إدراك الخير والشر حدسيا، وتبقى معطياته وفعالياته تلعب دور كبير في حياتنا الأخلاقية، فهي تعمل على توجيه السلوك ،ومن هنا فالوجدان يبقى دليل معصوم من الوقوع في الخطأ وهو جوهر ثابت ومشترك بين جميع الناس.

ثانيا: صدى خيرية الله في الإنسان:

كما قلنا سابقا أن الوجدان الخلقي جوهر معصوم من الوقوع في الخطأ والزلل، وهذا دليل وخير تأكيد على أن هناك كائن مسؤول على عصمة هذا الضمير الخلقي، وهو كائن يتصف بالخيرية المطلقة وخيرته تتجلى في مخلوقاته.

روسو من خلال رؤيته القائلة بأن "**الضمير غريزة الهية وصوت سماوي خالد**" إشارة إلى أن هذا المبدأ حقيقة مطلقة تفيض وتصدر من الله، وتظهر بالأساس في قدرة الإنسان على التمييز بين مفهومي الخير والشر، وقد اتخذ روسو من فكرة الضامن كركيزة ينطلق منها في إثبات خيرية الإنسان، وهذا يعني أنه لابد من وجود كائن كامل يضمن ويكفل عصمة تلك الغريزة الربانية، وهنا يبدو أن روسو قد تأثر بفكرة الضامن الإلهي عند ديكارت[*] René Descartes (1595-1650) الذي اعتبر أن إيماننا بوجود كائن يتصف بالكمال المطلق دليل على أنه لا يمكن أن يخدعنا، وبالتالي فهو صادق وصدقه هو الضامن الحقيقي لكل تفكيرنا[1].

خيرية الله تتجلى في كائناته، وخيرية الإنسان الطبيعي نموذج مأخوذ عن خيرية مطلقة، صادرة بالضرورة عن كائن لا متناهي، لا يفيض عنه إلا الخير، فروسو كان حريصا في رؤيته لخيرية الإنسان أنها

[*] – ديكارتRené Descartes (1595-1650) فيلسوف فرنسي، يعد رائد الفلسفة في العصر الحديث، وفي الوقت نفسه كان رياضيا ممتازا، ابتكر الهندسة التحليلية من بين مؤلفاته: مقال في المنهج. (انظر:عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1984، ص 488).

[1] – يحي هويدي: دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار النهضة العربية، دط، القاهرة، 1968، ص 48.

تتطلب وجود خيرية أبدية مطلقة تصدر عنها، بحيث أنه يكون لها أثر في خيرية الإنسان، وتبرئة الله من مسألة وجود الشر أساسا، فلا يمكن أن يصدر الشر من كائن مطلق يتصف بالخيرية، وذلك يعني أن الخيّرَ لا يفيض عنه غير الخير.

إن روسو في سعيه إلى تبرئة الله من مسؤولية حدوث الشر اتبع طريقة مغايرة عن الطريقة التي اتخذها القديس أوغسطين[*] Aurelius Augustines (354- 440) وغيره من رجال الدين، الذين سعوا جاهدين إلى تبرير تبرئة الله بتأكيدهم على نظرية الخطيئة، ومن خلال ذلك فقد رفض روسو رأيهم مؤكدا بذلك على براءة الله، فقد صرح على أن مسألة حدوث الشر ليست من الإنسان كما أنها لم تأت من الله بل من طرف آخر هو المجتمع يقول روسو " **أيها الإنسان لا تبحث عن أصل الشر، فأنت فاعله لا أحد سواك، لا شر في الكون إلا مما تفعل أو ما تتحمل، هذا وذاك صادر عنك**"[(1)]، ومن خلال هذا القول نستشف بأن روسو لا يقصد الإنسان الطبيعي الذي كان يعيش منعزلا ومتوحدا في الغابة وإنما كان يقصد الإنسان التاريخي.

الإنسان يقدم على فعل الخير بحرية تامة، وفي المقابل يقوم بالفعل الشرير بسوء استخدام تلك الحرية، فمفهومي الخير والشر صادران عن ماهية الإنسان، التي تتمثل أساسا في الحرية، وهذه الأخيرة يؤكدها الإنسان بفعله للخير ويلغيها بفعله للشر، ومن ثم فقد نفت العناية الإلهية الشر لأن في الفعل الشرير هضم لأهم حق من حقوق الإنسان وهو الحرية، وكنتيجة من ذلك فالحرية ارتبطت بالفعل الخيّر فهو الذي يدعمها ويؤكدها، غير أن لتلك الحرية حدود وضوابط، فقد جعل لها الله حدود إذ أن التمادي فيها يؤدي إلى الاختلال بهذا الكون البديع وبانتظامه، وهذا تأكيد على أن هناك قوة مطلقة مسؤولة عن انتظام

[*] – أوغيسطين Aureluis augustins (354-440) ولد في طاجيسكا من أعمال نوميديا، أمه مسيحية، وكان أبوه وثني، تلقى دراسة وافية في البيان، انصرف عن المسيحية قبل أن يبلغ العشرين، أشهر كتبه: مدينة الله، في الثالوث. (انظر: فؤاد كامل وآخرون: الموسوعة الفلسفية الميسرة، دار القلم، دط، بيروت، لبنان، د ت، ص 88).

[1] – جون جاك روسو: دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا، ص 58.

هذا الوجود وهو نموذج يتجلى في ترتيب وتناغم جميع الكائنات والمخلوقات، وهي قوة عليا خيرة، خلقت الكون وأبدعت فيه يقول روسو:" **إن التجانس والتناغم الذي يحكم الكون لهو تعبير صادق على تلك الصفات الجوهرية التي تحملها الذات الإلهية، تلك القوة العليا التي تحم الكون بخيرية وعدالة، خيرية أنشأت الكون وخيرية تحافظ عليه**".[1]

بمعنى أن تلك الإرادة والقوة الخيرية تسعى لأن تحمي الكون بخيرتها وعدالتها، وتحافظ بذلك على انتظام وتجانس هذا الوجود، فخيرية الذات الإلهية تتجلى من خلال إبداعها لهذا الكون والسهر على تنظيمه بمبدأ العدالة، فجوهر العدالة يحافظ عليه ويحميه، أما عن خيرية الإنسان فهي تظهر – كما سبق الذكر– من خلال عاطفة الشفقة تلك العاطفة التي تجعلنا نحب لغيرنا تماما مثلما نحب لأنفسنا، والسهر على دفع الألم عنهم، وذلك يعني أن عاطفة الشفقة مصدر كل خير في الإنسان، فهي التي تجعله خير وفاضل، ومنه فذلك الإنسان الخير خاضع لقوة عليا خيرة خلقت الكون في انتظام " **فلا وجود لشيء ليس جزءا من ذلك الجهاز المنظم ولا وجود لشيء لا ينسجم مع الغاية الموحدة وهي حفظ الكل في نطاق النظام القائم**".[2]

فظهور الكون في صورة منتظمة دليل على وجود علة مسؤولة عن انتظام هذا الكون وظهوره في شكل منسجم "**فليس الوجود إذن حيوان كبير يتحرك من ذاته، بل هناك في تلك الحركة سبب خارجي عنها**"[3]،وروسو كان حريصا على التأكيد أن هناك محرك أول أبدع في هذا الكون فأخرجه في أحسن صورة، وهذا المحرك الذي لا يتحرك يتصف بالكمال فهو المسؤول عن إيجاد هذا العام وإظهاره في شكل

---

[1]– J-J- Rousseau: Emile ou l'éducation, p 112.

"que de sophismes ne faut il point entasser pour méconnaître l'harmonie des êtres et l'admirable concours de chaque pièce pour la conservation des autres".

[2] – رومان رولان: آراء روسو الحية: تر: محمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنان، 1961، ص 101.

[3] – J-J- Rousseau: Emile ou l'éducation, p 117.

"Le monde n'est pas donc un grand animal qui meuve de lui-même, il y a donc dans ses mouvement quelques causes étrangère de lui".

متناسق ومنسجم، وإذا كانت المخلوقات في حركة فلابد أن تكون هناك قوة و إرادة إلهية تقف وراء تلك الحركة، فمن غير الممكن أن تكون هناك حركة بدون محرك وعلة بلا معلول، ومن خلال ذلك أراد روسو التأكيد على أن هناك إله أوجد هذا الكون ويتصف بالخيرية، فهو المسؤول عن انتظام وإبداع هذا العالم.

ومن هنا فهو يؤمن بوجود عناية إلهية ذات إرادة مطلقة تحرك هذا الكون يقول روسو: "**هاهو ذا مبدئي الأول، أعتقد إذن أن هناك إرادة تحرك الكون وتحيي الطبيعة**"[1] ،بمعنى أن الكون يجري في سيرورة منتظمة وفي تناغم وانسجام وفي ذلك تأكيد على أن هناك عناية إلهية مسؤولة عن تحقيق ذلك الانسجام والانتظام يقول روسو:" **آمنت بوجود قوة تحرك الكون وفق قوانين تدلني على وجود كائن ذكي**"[2].

ومن خلال هذا القول نستنتج بأن روسو يؤمن بأن هناك علة فاعلة وإرادة قوية، تقف وراء تحريك هذا الكون فهي تديره بشكل منسجم، كما أن تلك الصفات التي نطلقها على العناية الإلهية والمتمثلة في القوة، الكمال والإرادة دليل على وجود اله مدبر، ومن ثم فلا يمكن أن يصدر عن كائن ذو إرادة مطلقة غير الخير، وتلك الإرادة والقوة لا يمكن أن تحقق الانتظام والانسجام إلا اذا اتجهت نحو حب الذات وهذا يعني أن خيرية الله تظهر في حب ذاته وكذا في قوته .

وعليه يمكن القول أن خيرية الله هي صدى في خيرية الإنسان وذلك من خلال أن خيرية الله المطلقة صورة نموذجية لخيرية الإنسان، ذلك أن خيرية الله تتجلى من خلال قوته وحبه لذاته، أما خيرية الإنسان فتظهر كذلك من خلال حبه لذاته من جهة والشفقة والتعاطف مع الآخرين من جهة ثانية، فهو يسعى دائما إلى حماية الآخرين ودفع الضرر عنهم.

---

[1] - J-J- Rousseau: Emile ou l'éducation, p 118.

"Voila mon premier principe, je crois donc qu'une volonté meut l'univers et anime la nature".

[2] - Ibid, p 121.

"La matière mue selon de certaines lois me montre une intelligence: c'est mon second article de foi".

المبحث الثالث: خصائص ومبادئ خيرية الإنسان الطبيعي.

إن خيرية الإنسان الطبيعي قد ميزتها مجموعة من الخصائص والمبادئ التي ظهر بها الإنسان في تلك الحالة على أنه إنسان خير وفاضل، ففيما تمثلت؟

أولا: خصائص خيرية الإنسان:

لقد أولى روسو الكثير من الاهتمام للصفات الأساسية التي ميزت إنسان الطبيعة، وذلك من خلال تتبعه لمراحل تطور الجنس البشري قصد معرفة ما هو أصلي وطبيعي في الإنسان وما هو مضاف إليه بفعل الحضارة والمدينة، وكانت غايته تتمثل أساسا في دحض مقولتي هوبز الشهيرتين بأن: "**الإنسان ذئب لأخيه الإنسان**" أي أنه شرير بطبعه، وأن حالة الطبيعة "**تمتاز بحرب الكل ضد الكل**"، غير أن روسو يذهب إلى القول بعكس ذلك، ليؤكد على أن الحالة الطبيعية هي حالة يسودها الاستقرار والخير والسعادة، والفضيلة ومن هنا فإنسان الطبيعة كان يعيش حياة سعيدة وهنيئة، وكان قلبه مليء بعواطف الخير والحب، فكانت طبيعته خيرة.

وقد بنى جون جاك روسو نظريته أساسا على مقولة "**أن الإنسان طيب بطبعه**" بمعنى أنه خير وخيرته نابعة من خيرية الله، وكانت غايته تهدف إلى تبرئة الله والإنسان من مسألة حدوث الشر، وهذا ما نجده يعبر عنه في مستهل كتابه إميل :" **يخرج كل شيء من يد الخالق صالحا، وكل شيء في أيدي البشر يلحقه الاضمحلال**"[1]، أي أن روسو يؤكد أن الإنسان عند خروجه من بين يدي خالقه، قد خرج وهو متصف بكامل الصفات الخيرة والطيبة، وهي ما اصطلح عليه روسو بالحالة الطبيعية، التي طالما اقترنت بالخيرية، هذه الأخيرة التي ميزت الإنسان الطبيعي .

[1] – جون جاك روسو: إميل أو تربية الطفل في المهد إلى الرشد، ص24.

إن الحالة الطبيعية ليست محطة تاريخية تعبر عن لحظة وقعت في زمن معين، بل تبقى مجرد فرضية ينطلق منها روسو ليبرهن من خلالها أن الإنسان كان يحيا حياة سعيدة، مستقرة وفاضلة، ومن هنا يؤكد روسو على ضرورة معرفة الإنسان لأن معرفة طبيعته تساعد على تحديد الحق الطبيعي يقول روسو:" **فما دمنا على جهلنا بمعرفة الإنسان الطبيعي فمن العبث أن نحاول تحديد القانون الذي استمده هو من الطبيعة، أو ذلك الذي يلائم تكوينه أكثر من غيره، وكل ما يمكننا أن نراه في موضوع هذا القانون هو أنه يجب لكي يكون قانونا ليس فقط تستطيع الإرادة الملزمة به أن تخضع له وهي تدركه بل يجب أيضا لكي يكون هذا القانون طبيعيا أن يتكلم بصوت الطبيعة**".[1]

ونفهم من هذا على أن الجهل بمعرفة طبيعة الإنسان سيتولد عنه اختلاف حول تحديد الحق الطبيعي، هذا الأخير الذي ارتبط تحديده بفهم الحالة الطبيعية، كما أن الفلاسفة اختلفوا حول مفهوم الحق الطبيعي وتفسيرهم له، فنجد هوبز يربط الحق الطبيعي بالحرية بمعنى أنه مرتبط بالطبيعة البشرية، وهو يتحدد عنده في المحافظة على النفس وحمايتها بكل الإمكانيات المتوفرة ،ونجد جون لوك ينظر للحق الطبيعي على أنه للإنسان كامل الحرية في أن يتصرف في الأشياء التي يمتلكها، وفي نظرته للحق الطبيعي يرى بأنه مستقل عن سلطة البشر، ذلك أن البشر يملكون طبيعة واحدة ويتمتعون بالحرية والمساواة، في حين نجد بأن روسو كان على جهل بكامل هذه الحقوق، فقد كانت الطبيعة كفيلة بتوفير حاجاته ومتطلباته، ومن هنا فالقانون الطبيعي نابع من الطبيعة البشرية، أي أن الإنسان يستمده منها، وبهذا فروسو يرى بأن القانون الطبيعي يقوم على مبدأين أساسيين هما الرغبة في الحفاظ على الوجود والشفقة والرأفة على الآخرين، بمعنى أن ذلك القانون قائم على الغريزة، فالإنسان يحكمه قانون طبيعي مبني على الشعور الغريزي بضرورة التوافق والانسجام مع أبناء جنسه.

[1] – جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، موفم للنشر سلسلة الأنيس، 1991، ص 27.

يرى روسو أن الإنسان الطبيعي في الحالة الطبيعية " **لما كان متشردا بين الغابات لا صناعة له ولا كلام ولا مسكن، ولا يعرف الحرب، ولا ارتباطات له بالغير، ولا حاجة له لأمثاله قط، ولا رغبة له كذلك في إلحاق الضرر بهم، بل ربما لم يتعرف إلى واحد منهم على أنه فرد قط**"[1]، بمعنى أنه عاش وحيدا في الغابات منعزلا، ليست لديه معرفة بأحد ولا تربطه بهم أية صلة، كان سعيدا، لم يعرف القيود، ولم يصطنع الرياء، كان يتصرف بعفوية وحرية، ولم يكن له مسكن ثابت ومستقر، كان يعتمد على الغريزة، ولم يكن في حاجة إلى معونة الآخرين بل كان يكفي نفسه بنفسه، فعاش في انسجام وتوافق مع الطبيعة محققا بذلك اكتفاء ذاتيا بفضل توازن متطلباته مع خيرات الطبيعة، ذلك أن الطبيعة قد وفرت له حاجياته البيولوجية يقول روسو في هذا الصدد: " **ها إني أراه قاعدا تحت شجرة بلوط ناقعا عطشه من أول جدول ماء، واجدا سريرا لنومه عند جذع أول شجرة أمدته بوجبة طعام، وهكذا تكون جميع حاجاته قد قضيت**"[2] ، ومعنى هذا أن الطبيعة هي الضامن الوحيد لعدم ندرة حاجات الإنسان الضرورية فهي تسعى لسد حاجاته، فالنوم والأكل تبقى حاجات بيولوجية ضرورية، تضمن الطبيعة عدم قلتها.

يرى روسو أن إنسان الطبيعة لم يكن جبانا يرهب كل قوة تقف ضده كما ذهب إلى ذلك مونتيسكيو[*] Montesquieu (1689- 1755) ولم يكن إنسانا وحشيا وأنانيا يحارب كل من حوله كما ذهب إلى ذلك هوبز، فحالة الحرب والخوف والأنانية لم تظهر إلا في الحالة المدنية، كما أنه في حالة الطبيعة يكاد ينعدم الشر الناتج عن التفاوت، ما عدا التفاوت الذي أقره قانون الطبيعة كالفروق الحاصلة في القدرات العقلية والقوة الجسمية، الصحة والسن.

[1] – جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم، ص 109.

[2]- نفسه، ص72.

[*] – مونتيسكيو: مفكر سياسي واجتماعي، وهو ينحدر من أسرة فرنسية نبيلة، ولد في قصر حصين في 1689 بالقرب من لا بريد، توفي سنة 1755 في باريس.(انظر:عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، ج2، ص 488).

يؤكد روسو أن الإنسان الأول لم يكن في حاجة إلى غيره، كما أنه لم يكن في حاجة إلى مسكن ثابت، فالطبيعة كلها تعد مسكنا بالنسبة له، لم يكن في حاجة إلى علاج، ولا حتى إلى طبيب، ولم يعد ينظر إلا للشيء الذي يراه مفيدا له، كما أنه لا يخشى على نفسه شيئا إلا الجوع أو الألم الناجم من المرض يقول روسو: "**كل ما يعرفه من الخيرات في الكون إنما الغذاء والأنثى والراحة، وكل ما يخشاه من شرور، إنما الألم والجوع**"[1].

الإنسان الطبيعي لم يكن في حاجة إلى التفكير، فقد وجد في حالة الجهل أنسب حالة لتوفير السعادة والهناء، كما أن الطبيعة حرصت على تحقيق جميع متطلباته الغريزية، ذلك أن "**حالة التفكير حالة تضاد الطبيعة، وإن الإنسان الذي يتأمل [بعقله] حيوان فاسد**"[2]، بمعنى أن التفكير والعقل كانا سببا في فساد الإنسان وشقاءه، لهذا فإن الإنسان الطبيعي لم يكن في حاجة للخيال و التفكير بل وزالت معهما حتى حاجته للغة، فقد ارتبط نمو التفكير والخيال باللغة التي يعبر بها عن أغراضه ومتطلباته، ومن هنا فروسو يرى بأن الإنسان الطبيعي لا يملك أي لغة، ولم يكن في حاجة إليها فقد كان يعتمد على الحواس كنافذة يطل بها على الأشياء ويتواصل بها معهم ولم تكن له أية علاقة مع الآخرين يمكن أن تصير علاقة أخلاقية، ليست لديه عاطفة، وقد كانت صرخاته الغريزية تغنيه عن الألفاظ والكلمات وفي ذلك "**يتبين لنا مدى ما أبدته الطبيعة من عدم مبالاة بالتقريب بين البشر عن طريق حاجات متبادلة وبتسهيل استعمال الكلام عليهم مدى قلة عنايتها بتمهيد السبيل أمام اجتماعهم**"[3].

يرى روسو بأن للإنسان خاصية ميتافيزيقية وهي الحرية، فبالحرية يكتسب الإنسان قوة، وفي تلك القوة تكمن خيرته، ذلك أن الإنسان ليس موجودا تحدده غرائزه، فهو يمتلك القدرة على أن يختار، ويرفض

[1] – جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: عادل زعيتر، ص 86.

[2] – جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم ،ص 80.

[3] – اميل بريه: تاريخ الفلسفة، تر: جورج طرابيشي، ج5، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1983، ص 196.

أو يقبل، بمعنى أن له إرادة حرة بدلا أن يكون أسيرا لغرائزه، فيستطيع أن يتحدى الطبيعة، وهذه الإرادة الحرة هي التي ميزته عن الحيوان أكثر مما يميزه منها الفهم، فالقيم الأخلاقية لفعل من الأفعال تنبثق من خيرية الإرادة التي تحث على ذلك الفعل الخير، وبدون تلك الحرية يكون الإنسان ضعيفا، ولا يأتي منه غير الشر، وبذلك "**لا يتبع الإنسان في الحالة الطبيعية إلا الأشياء لا البشر وهذه التبعية لا تضر بحريته**"[1]، بمعنى أن الإنسان الأول رغم تبعيته للأشياء، إلا أنه يبقى كائن أخلاقي حر، يسعى دائما لفعل الخير اتجاه أقرانه من البشر، وتبعيته هذه لا تضر بحريته، ومن ثم فهو إنسان طيب بعيد عن كل فعل شرير.

لهذا تبقى الحرية خاصية من خصائص النوع البشري، لا يمكن التنازل عنها حتى بعد الميثاق الاجتماعي، فهي أساس خيرية الإنسان الطبيعي، ومن خلال ذلك فالخصائص الطبيعية والميتافيزيقية التي ميزت إنسان الطبيعة، قد ساعدته على العيش في وفاق وانسجام مع الطبيعة، وهي الخصائص التي عبرت عن خيرته، وأكسبته قيم وفضائل أخلاقية.

ثانيا: مبادئ خيرية الإنسان:

خيرية الإنسان الطبيعي لا تقوم فقط على ما يتميز به من سمات طبيعية وميتافيزيقية وحسب وإنما تنشأ من خلال عاطفتين طبيعيتين أساسيتين، تجعل من طبيعة الإنسان طبيعة خيرة وهما حب الذات وعاطفة الشفقة أو الرأفة.

1- حب الذات (Amour de soi):

إن معظم ما ميز الإنسان الطبيعي من خصائص طبيعية وميتافيزيقية تتجه نحو هدف واحد وهو السعي نحو غريزة حفظ البقاء، حيث أن نشاط حب الذات يعد من فطرة الإنسان الطبيعي، وهو ملازم لغريزة حفظ البقاء.

[1] - اميل برييه: تاريخ الفلسفة، ج5، ص 201.

إن حب الذات لا يحمل أي معنى غير أخلاقي، ولا يعبر عن الأنانية مثل ما أقر به هوبز، بل إن غريزة حب الذات تتوافق وطبيعة الإنسان الخيرة التي تسعى لحفظ بقائها لكن دون الحاق الضرر بالآخر، فلا يمكن أن يصدر عن هذه الغريزة الشر، فرغم أنها تهدف لحفظ كيانها، إلا أنها تبقى حريصة على التضحية في سبيل الآخرين، تسهر على دفع الألم عنهم، ومنه فإن خاصية حب الذات خاصية تحمل في طياتها معاني الخيرية وليس لها علاقة بالمعاني الشريرة، ومن خلال ذلك فإن خصائص الإنسان الطبيعي قائمة على هذا المبدأ الذي عبر عن خيرية هذا الأخير وأخلاقيته يقول روسو: "**حب الذات دائما حسن مطابق للنظام**"[1]، أي أن الإنسان الطبيعي يسعى لتحقيق التوافق والانسجام مع نظرائه من البشر، فحب الذات الذي ميزه كان دائما حسن، لا يرتبط بأي أنانية، ففيه تكمن خيرية الإنسان الطبيعية، ولأن الخيرية قد ارتبطت بالحرية، فإن سعادته تبقى مرهونة بمدى توجيهه لهذه الحرية.

يرى روسو بأن حب الذات عاطفة فطرية في الإنسان الطبيعي وهو يقترن دائما بغريزة حفظ البقاء، ذلك أن حب الذات الغاية منه تحقيق حفظ كيانه ولكن دون المساس بغيره يقول روسو: "**إن الحالة الطبيعية وهي الحالة التي حرصنا فيها على حفظ بقائنا هو الأقل إضرارا بحفظ بقاء غيرنا**"[2]، ومن ثم فإن مبدأ حب الذات رغم أنه حب مفرط إلا أن الغاية منه واضحة لا تتعدى تحقيق المطلب الغريزي للإنسان في حفظ البقاء، وهو خال من الشعور بالحقد والأنانية، فهو حب بريء وأصيل في كل نفس إنسانية.

الإنسان في الحالة الطبيعية لم يعرف من الخيرات إلا الطعام والأنثى والراحة، وقد كان يخشى على نفسه شرور الألم والجوع، لم يكن يعرف المفاضلة بين أنثى و أنثى أخرى، ويرى أن كل أنثى جميلة "**فهو لا يصغي إلا لمزاج جبلته الذي تلقاه من الطبيعة لا إلى الذوق الذي لم يستطع اكتسابه**"[3]، ومنه فإن حبه

---

[1]- J-J-. Rousseau: Emile ou l'éducation, p05.
"L'amour de soi- même est toujours bon, toujours conforme à l'oratre".

[2] – جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم ،ص 99.

[3] – جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، ص 76.

الفطري يهدف فقط إلى حفظ كيانه، ذلك أن حب الإنسان الطبيعي لذاته يجعله يستقل عن كل تبعية، لا حاجة له بأحد فهو مستقل عن الآخرين و ليس تابعا لهم ،فجميع حاجياته تكفلت بها الطبيعة، فقد وفرت له جميع متطلباته بما فيها الأنثى، وهو ما يؤكد على قوة الانسان الطبيعي، وهذا الأخير لم يكن خيرا إلا عندما كان قويا، ومن ثم فلا يمكن أن يكون قويا ولا يحب ذاته.

ومن خلال ذلك نستنتج بأن خيرية الإنسان الطبيعي تتجلى في حبه لذاته، وذلك لتحقيق هدف واحد وهو الميل لحفظ البقاء، ولا يكتسي أي معنى غير أخلاقي فهو مجرد من الأنانية والحقد، فرغم أن الإنسان الطبيعي يتصف بحبه لذاته إلا أنه مزود بكره فطري يجعله يعدل عن كل سلوك لا أخلاقي .

2- عاطفة الشفقة أو الرأفة: (La Pitié)

إلى جانب عاطفة حب الذات التي ميزت إنسان الطبيعة، فقد صاحبتها عاطفة أخرى إنها عاطفة الرأفة وهي فطرية في الإنسان الطبيعي، تسعى للحد من نشاط حب الذات، لتعزز بذلك حفظ بقاء النوع كله، يقول روسو: " **تنشأ الشفقة وهي أول عاطفة خاصة تمس قلب الإنسان حسب نظام الطبيعة**"[1]، وذلك يعني أن عاطفة الرأفة تولد مع الإنسان، أي أنها فطرية فيه، هدفها تعديل السلوك الإنساني، وتزكية الأخلاق، وتهذيب النفوس، وكذلك الحد من الأنانية التي تتملك كل نفس إنسانية من أجل حفظ بقاء الجنس البشري، فالإنسان الطبيعي يملك استعداد فطري يجعله يهب لحماية الآخرين، وإنقاذهم ذلك أن الشفقة أو الرأفة "**أصبحت تدفعنا إلى أن نهب من غير تردد إلى إسعاف من نراهم يتعذبون، وهي التي كانت في حال الطبيعة تقوم مقام القوانين والأخلاق والفضيلة**"[2].

[1] - J-J- Rousseau: Emile ou l'éducation, p22.
"ainsi naît la pitié sentiment relatif qui touche la cœur humain selon l'ordre de nature".

[2] - بليمان عبد القادر: الأسس العقلية السياسية، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر، 2007، ص 79.

ومن هنا يتبين أن الإنسان الطبيعي كان يتألم لألم الآخرين، بل و يدفع الألم عنهم، فالإنسان يحكمه قانون طبيعي مبني على الشعور الغريزي بضرورة التوافق والانسجام مع غيره، فلا يتعدى عليهم، ولا يلحق بهم أي ضرر، فهو يعيش معهم في حالة سلام وهدوء، وبفضل انسجام العواطف الطبيعية تنشأ خيرية الإنسان فالإنسان الطبيعي لم يكن وحشي أناني كما أقر به هوبز، بل كان عند روسو إنسان صالح وسعيد، يتمتع بخاصية الرأفة والتعاطف إذ أن خيرية و"**فضل الإنسان يتجلى في عطفه على أمثاله**"[1]، فالإنسان يحمل في داخله مبادئ ودوافع غريزية تجعله يسعى للمحافظة على بقائه من جهة وبقاء بني جنسه من جهة أخرى، متخذا بالمبدأ القائل: " **افعل ما يكون فيه خيرك بأقل ما يمكن من الضرر بغيرك**"[2]، ذلك أن إنسان الطبيعة إنسان سعيد، بعيد عن شقاء المدينة وتوتراتها، وهو إذ يدافع عن مصلحته الشخصية، يشعر أيضا بآلام الآخرين، ويتعاطف معهم، فهو يتمتع بحس اجتماعي، يقول روسو: "**ولما كان مجبولا أيضا بالغريزة وبالعقل على اتقاء الأذى الذي يتهدده اذاك التحنن الطبيعي يزعه عن فعل الشر من تلقاء نفسه لأي شخص كان**"[3].

وهذا يعني أن روسو يؤسس الطبيعة البشرية على العواطف الخيرة، بحيث لا يستطيع أي إنسان أن ينزل ضرر بغيره ولا يستطيع أن يقاوم دافع الرأفة أو الشفقة، فلا يؤذي أي كائن يملك إحساس، وبعاطفة الشفقة يتحقق الانسجام بين الأفراد و يحفظ بقائها ويتحقق لها الهناء والاستقرار يقول روسو:" **التحنن شعور طبيعي، ولكونه يعدل في نشاط حب الذات لدى كل فرد من الأفراد، فإنه يساعد على حفظ البقاء المشترك للنوع كله**"[4].

[1] – جون جاك روسو: دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا، ص 67.

[2] – جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم ،ص 105.

[3] – نفسه، ص 125.

[4] –نفسه، ص 105.

ومن هنا فالتحنن خاصية إنسانية تدفع بالفرد للحفاظ على بقاءه وبقاء غيره وروسو يؤكد على أن الرأفة هي مصدر كل القيم الاجتماعية ذلك: " **أن الرفق، بل والصداقة نفسها، في حقيقة أمرها، انتاج تحنن ثابت موصول بموضوع خاص: عندما لا نريد أن نرى بشر يتألم فما عساها تعني رغبتها تلك إن لم تكن تعني أن نراه سعيدا؟ و إن كان حقا أن الشفقة ليست إلا شعورا يجعلنا في محل من يتعذب، وهو شعورا نراه معتما ومحتدما لدى الإنسان المتوحش، ونراه متطورا ولكنه واهن لدى الإنسان المدني**"[1].

من هنا يتبين أن الإنسان الطبيعي قد عرف حياة سعيدة تتسم بالمساواة بين الأفراد إلى درجة أن التفاوت يكون معدوما بينهم وذلك راجع إلى أن الحالة الطبيعية تنفي وجود الفوارق بين الأفراد، إنها حالة سلم واطمئنان، ينتشر فيها الخير والفضيلة، وهذا ما يؤكد على الطبيعة الخيرة، التي كان يتصف بها إنسان الطبيعة، فهو يميل إلى الخير وينفر من الشر، غير أنه ليست لديه قدرة على التمييز بينهما، فالبشر في حالتهم البدائية يخضعون لميولاتهم الغريزية التي تدفعهم للبحث عن سعادتهم ولكن دون إلحاق ضرر بغيرهم، وهذا ما تفرضه عليهم عاطفة الرفق والتحنن التي تدفع بهم إلى كره فطري لرؤية غيرهم يتألمون يقول روسو في هذا الصدد: "**يحملنا التحنن، من غير تفكر على أن نهب إلى إغاثة من نراهم يتألمون**".[2]

ومنه نستنتج أن التحنن يساعد على القضاء على حب الذات والأنانية التي قد تطبع نفس كل إنسان، بل ويجعله يعرض عن انتزاع حقوق من هم أضعف منه، فالتحنن شعور طبيعي يدفع الإنسان إلى أن يحب ويفعل لغيره تماما مثلما يجب أن يفعلوا له وذلك تبعا للقاعدة القائلة: "**افعل لغيرك مثل ما تريد أن يفعل لك**"[3]، فالتحنن يقوم على مبدأ قائم على الخيرية، ومن ثم فهو منبع كل نفع وخير في الإنسان.

---

[1] – جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: عادل زعيتر، ص 103.

[2] – نفسه، ص 105.

[3] – نفسه، الصفحة نفسها.

يعتقد روسو بأن البشر طيبون في طبيعتهم، وهو ما يعتبر أحد مبادئه الأخلاقية، كما يؤكد على أن البشر لديهم رد فعل ضد معاناة الآخرين تكمن في الشعور أو الإحساس، وليس العقل فالإنسان الطبيعي يمتلك خيرية تدفعه إلى أن يهتم بأقرانه، وهنا نجد روسو يميز بين الإنسان الأخلاقي والإنسان الخيّر، فأما الإنسان الأخلاقي فيفعل من إحساس بالواجب، فالواجب هو الذي يملي عليه ما يجب القيام به، أما بالنسبة للإنسان الخير فيتبع غرائزه الطبيعية دائما، وهي التي يسميها روسو بالطبيعة الأولى التي لم يفسدها الغرور وحب الذات، فالإنسان الخير هو الذي يتحلى بمختلف مظاهر العطف، والحب والرأفة وهذا ما نجده في الإنسان الطبيعي في نظره، حتى أن روسو وضع نفسه في فئة الناس الخيرين، ونجده يصف الإنسان الطبيعي فيقول: "**وبينما لا تجد ما هو ألطف منه في حاله الفطرية، عندما تضعه الطبيعة على أبعاد متساوية من غباوة الوحوش وبصائر الإنسان المتمدن المشؤومة، ويكون مقصورا بالغريزة والعقل على ضمان نفسه من السوء الذي يهدده، تراه مزدجرا بالرأفة الطبيعية عن إساءة أحد من تلقاء نفسه**"[1].

ومعنى ذلك أن الإنسان في حالته الأولى كان إنسان لطيف، تدفعه غريزته إلى أن يحفظ نفسه من كل سوء، فهو يستمتع بعاطفة وجوده ويهتم ببقائه، بل وتجعله عاطفة الرأفة ينظر بعين الإستفضاع لآلام وموت الآخرين، ذلك أن أنانية الإنسان الطبيعي التي يوجهها العقل وتلطفها وتنقص من حدتها الرأفة، تجعله صالحا وفاضلا ومن ثم فهو إنسان حر وكامل.

[1] – جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: عادل زعيتر، ص 62.

وما يمكن استخلاصه من هذا الفصل: أن جون جاك روسو قد أعطى أهمية كبيرة لمعرفة الإنسان، فقد عد الإنسان محورا للعديد من دراساته، وقد كان هدفه من ذلك معرفة أصل الشر ومصدره، ومن ثم العودة بالإنسان إلى حالته الأولى، إذ أنه لا يمكن لأي فلسفة مهما علا شأنها، تحديد أصل مشكلة الشر ما لم تتخذ من معرفة الإنسان منطلقا لذلك، ومن هنا فقد بنى روسو نظريته حول الإنسان الطبيعي انطلاقا من مقولة أنه خير بطبعه، وتلك الخيرية نابعة أساسا عن مصدر ثابت وهو الله وقد زود الإنسان بمبدأ فطري داخلي موجود في أعماق قلوبنا وهو الضمير، بواسطته يستطيع الإنسان التمييز بين الخير والشر، وهو مصدر لقيمنا ومبادئنا الأخلاقية، وذو أهمية في بناء الحياة الأخلاقية، وتوجيه السلوك نحو ما ينبغي فعله، فهو جوهر ثابت ودليل معصوم من الوقوع في الخطأ والزلل، ومن هنا فخيرية الإنسان تفيض عن خيرية الله المطلقة ذلك أن خيرية الله صورة نموذجية لخيرية الإنسان، و عليه فإن خيرية الله تظهر من خلال قوته وحبه لذاته، أما خيرية الإنسان فتظهر من خلال تلك الخصائص والمبادئ التي ميزته أي من خلال عاطفتين: عاطفة حبه لذاته، وعاطفة الشفقة والتعاطف مع الآخرين، فإنسان الطبيعة يتمتع باستعداد وكره فطري من رؤية ابن جنسه يتألم، كما أنه يمتاز بفطرة لا توجد لدى الحيوان وهي عبارة عن عواطف الشفقة والضمير الوجداني التي ميزت إنسان الطبيعة فأصبح بذلك فاضلا خيرا.

الفصل الثاني

نشأة الشر

المبحث الأول: خروج الإنسان عن حالة الطبيعة.

المبحث الثاني: فساد أخلاق الإنسان المدني.

المبحث الثالث: انهيار خيرية الإنسان الطبيعي.

الفصل الثاني: نشأة الشر

إن مسألة الشر واحدة من بين المسائل الهامة والمعقدة التي حظيت باهتمام الكثير من الفلاسفة وعلماء الأخلاق ورجال الدين، بل وأسهموا في الخوض فيها لمعرفة دوافع نشوء الشر، ويعتبر روسو واحدا من بين الفلاسفة الذين أبدوا اهتمامهم بهذه المسألة، وتعلقها بمشكلة القيم التي تمس الإنسان بالدرجة الأولى باعتباره محور الوجود، وقد بنى روسو نظريته السياسية والأخلاقية حول مفهوم أن الإنسان خير بطبعه، غير أنه بفعل تعقد مسائل الحياة وتغير مناحيها بدأت حياة الإنسان تتدهور شيئا فشيئا، ففقد أهم الخصائص والمقومات التي تحدد شخصيته فوقع ضحية للاغتراب، ومنه فإذا كان الإنسان خلق من أجل أن يكون حرا وكائنا أخلاقيا، فكيف أصبح إنسان شقي وفاقد للفضيلة التي زودته بها الطبيعة؟ وكيف خرج الإنسان عن حالته الطبيعية؟ وماهي العوامل التي تقف وراء فساد أخلاق الإنسان المدني؟ وفيما يتجلى انهيار خيرية الإنسان الطبيعي؟

المبحث الأول: خروج الإنسان عن حالة الطبيعة.

لقد كان خروج الإنسان عن حالة الطبيعة عبر تطورات تاريخية متعاقبة مما يشير إلى تأثير عوامل تاريخية على الطبيعة البشرية، فتخرج بذلك عن حالتها الأصلية للدخول في الحالة التاريخية، وقد أدى هذا الانتقال إلى الحالة المدنية إلى تغيير في طبيعة الإنسان، فكيف حدث ذلك؟

أولا: القابلية للتطور ونشأة المجتمع:

إن فلسفة روسو السياسية والأخلاقية -كما سبق ذكره- تبنى أساسا على أن الإنسان خير بطبعه، وتلك الخيرية تتجلى من خلال عاطفتين متأصلتين في الطبيعة الإنسانية، وهما حب الذات والشفقة، وتلك الخيرية هي صدى عن خيرية الله، ولكن الإنسان لم يبق على تلك الحال من الخيرية إذ سرعان

ما بدأت في الانحراف شيئا فشيئا لتصل بذلك إلى قمة الشرور الحاصلة في الكون، ومنه فإذا قلنا أن الحالة الطبيعية مبنية على الحرية والمساواة فكيف خرج الإنسان منها؟.

يذهب جون جاك روسو إلى القول أن ما ميز الإنسان الطبيعي عن الحيوان هو حرية الإرادة، إذ أن الإنسان ليس كائنا تحدده غرائزه، فله كامل الحرية في أن يختار ويرفض، ويقبل، بمعنى أن له إرادة حرة وهي جوهر خيرية الإنسان، وتتجسد تلك الإرادة الحرة من خلال عاطفتي حب الذات والشفقة والتعاطف مع الآخرين ودفع الضرر عنهم.

إلى جانب تلك الخصائص التي تميز بها الإنسان، نحت روسو مفهوما جديدا في فلسفته هو قابلية الإنسان إلى الكمال والتطور (perfectibilité) و هي ملكة نوعية جدا تميز بين الحيوان والإنسان، وتقوم بتنمية الملكات الأخرى[1]، وذلك يعني أن القابلية للتطور التي تميز الإنسان عن الحيوان وبواسطتها تنمو الخصائص الأخرى، وفيها ينتقل الإنسان من مرحلة إلى مرحلة أخرى، وبقابلية التطور تحول الإنسان من إنسان الطبيعة إلى إنسان التاريخ، فالإنسان في رأي روسو هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يطور ملكاته تدريجيا وبمقدرته أن يطور ويخترع إما لخيره أو لشره.

غير أن هذه الملكة المميزة للإنسان والتي لا حدود لها أو تكاد هي أساس ومصدر جميع الشرور وشقاء الإنسان، وهي التي أبعدته عن حالته الأولى التي كان يقضي فيها أياما هادئة وبريئة، وبهذا فإن تطوره هو تطور نحو الشر والفساد، فتحول الإنسان بذلك إلى طاغية على نفسه وعلى الطبيعة.[2]

ومن خلال ذلك نلاحظ أن القابلية للتطور قد عجلت في خروج الإنسان عن حياة البساطة والعزلة إلى حياة اجتماعية مغايرة للحياة التي كان يعيشها، فقد كان يعيش متوحدا في الغابة ولم يكن في حاجة إلى معونة الآخرين، لأنه كان قادرا على توفير حاجاته بنفسه، وبالتالي فهو ليس كائن اجتماعي مادام

[1]- جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم، ص84.

[2]- نفسه، ص85.

أنه يعيش منعزلا عن الآخرين، إذ أن الإنسان الطبيعي وجد ضالته في حياة العزلة، كان ينعم فيها بالهدوء والاستقرار، غير أن ذلك لا يعني في نظر روسو أنه كان ضد فكرة التقارب والاجتماع مع الآخرين، ومن هنا فروسو كان موقفه يتوسط موقف كل من أرسطو وهوبز، ذلك أن أرسطو كان يقول بأن الإنسان اجتماعي بطبعه فهو يجنح دائما للالتقاء بالآخرين والتقرب منهم والتعاون معهم بنية تحقيق أساليب كافية للعيش، أما هوبز فقد أقر بعدول الإنسان الطبيعي عن الاجتماع، وأن التقارب والاجتماع قد حدث بدافع المنفعة والمصلحة المادية[1]. وهذا يعني أن الاجتماع لم تكن الرغبة منه الاجتماع وتحقيق الالتقاء مع الآخرين والتعاون معهم، بل كانت الغاية منه التخلص من حرب الكل ضد الكل وحالة الطمع والكبرياء وتحقيق الهدوء والاستقرار.

أما فيما يتعلق بروسو فإنه يرى بأن الإنسان لم يكن مدني بطبعه فهو لم يكن اجتماعي، كما أنه لا يقف ندا لفكرة الاجتماع، فمثلما أن لديه قابلية للتطور والتكامل فإن لديه كذلك قابلية للاجتماع.

يؤكد روسو بأنه لا يجب أن تكون الغاية من التقارب والاجتماع تحقيق منفعة خاصة أو مصلحة مادية، لأنه يعتقد أن متطلبات الإنسان تحقق اكتفاء ذاتي، ومن هنا فهو يؤكد على عكس ما أقربه هوبز، حيث يقول: "**حاجات الإنسان المادية ساهمت في تباعد الأفراد بدلا من تقاربهم**"[2]، وذلك يعني أن الإنسان قد وجد جميع حاجاته في الطبيعة، فقد استطاعت أن تلبي جميع رغباته، ومن ثم فقد وفرت عليه البحث عن أفراد يقيم معهم علاقات تيسر له اشباع حاجاته، وهذا ما ساهم في تباعد الأفراد بدل تقاربهم.

---

[1]-Marcel Hénaff: Rousseau, le contrat, le silence des passions (passions et politique 12/13. Albin Michel). Paris. Mai 1995. P124.

[2]–J -J Rousseau: Emile ou l'éducation. P 154.

"Car, à ne considérer que le besoin physique, il doit certainement disperser les hommes au lieu de les rapprocher".

رغم الحياة التي عاشها الإنسان في حالة الطبيعة والتي كانت حالة سلم وأمن إلا أن الإنسان ملزم بالخروج منها إلى مرحلة جديدة وهي الحالة المدنية، إذ أن الإنسان أدرك ضرورة الاجتماع فأصبح الإنسان بذلك يتميز بخصوصية إنسانية تضفي على أفعاله وسلوكاته صبغة أخلاقية، ومن ثم فقد حلت العدالة والقانون محل الغريزة التي كانت تميز أفعاله وسلوكاته، ولولا المساوئ التي كانت تظهر في حالته الجديدة لكان عليه أن يبارك تلك اللحظة السعيدة التي أخرجته من حالته البدائية، وجعلت منه كائنا ذكيا بدل أن يظل على غباوته[1].

وما يمكن أن نستنتجه هو أن روسو يؤكد أن للإنسان قابلية للتطور كما أن له قابلية كذلك للاجتماع والالتقاء بالآخرين والتعاون معهم، وأنه لا يجب أن تقوم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد على أساس تحقيق غاية من ذلك، وقد ساهم في تفعيل هذه القابلية العديد من العوامل، ففيما تتجلى هذه العوامل؟ وماهي النتائج المترتبة عليها؟

ثانيا: عوامل خروج الإنسان عن الحالة الطبيعية:

الجدير بالذكر أن الإنسان قبل أن يعرف الحالة المدنية، كان يعيش في الحالة الطبيعية تلك الحالة التي كان يسودها الاستقرار والمساواة والحرية، غير أنه مع مرور الوقت بدأت تظهر عوامل ساهمت في خروج الإنسان عنها والانخراط في خضم الحياة الاجتماعية، وقبل أن نأتي على ذكر العوامل التي أدت بالإنسان إلى الخروج عن حالته البدائية، يجب التنويه إلى أن فكرة القابلية للتطور لا تعني أن الإنسان التقى مع الآخرين بمحض إرادته، وإنما حدث ذلك الاقتراب والالتقاء بشكل عفوي تسببت فيه العديد من العوامل، ففيما تتجلى؟

[1]– ول وايرل ديورانت: قصة الحضارة– روسو والثورة، تر: فؤاد أندراوس، مراجعة علي أدهم، ج1، دار الجبل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، دت، ص284.

يؤكد روسو بأن الإنسان خرج من حالته الطبيعية حالما عارضته أسباب طبيعية كالبرد القارس والجدب، والغيظ المحرق التي دفعت الإنسان إلى التعاون مع غيره، وهي عوامل وقعت صدفة، ولولا ظهورها لبقي الإنسان على حالته الطبيعية ولما انخرط في الحياة المدنية والسياسية يقول روسو: "**حوادث طارئة وأسباب عديدة كان من الممكن ألا تحدث أبدا وبدونها كان من الممكن أن لا يصل الإنسان الحالة الاجتماعية**"[1].

بمعنى أن الإنسان قد بدأت تتعرض له حوادث طبيعية مهدت لظهور الحياة الاجتماعية، وخروج الإنسان عن حالته البدائية، وقد دفعت به تلك الحوادث إلى تغيير طريقة عيشه يقول روسو أن: "**اختلاف الأرضين والمناخات والفصول أمكنه أن يضطرهم إلى تبديل طريقة معيشتهم، ورب سنين مجدبة وفصول شتاء طويلة قاسية وفصول صيف محرقة، أتت على الأخضر واليابس، فألجأتهم إلى التماس وسائل للعيش جديدة**"[2]، أي أن التقلبات المناخية واختلاف الفصول هي التي أدت بالإنسان إلى البحث عن طرق ووسائل جديدة، تتفق وتلك التقلبات لا يجاد أساليب مختلفة للعيش، كما أن الإنسان قد واجهته العديد من الكوارث الطبيعية فقد "**اضطرتهم الفيضانات إلى الاجتماع بصفة مستديمة، فاخترعت اللغة، وتغير السلوك، وبرز الحسد، ونشبت الخصومة، هذا الاجتماع بنوعيه، المؤقت منه والمستديم، يمثل حالة التوحش، وهي ليست بعد الحالة المدنية؛ لأنها خلو من القوانين، وليس فيها من ردع سوى خوف الانتقام.**"[3]

بعد أن واجهت الانسان الفيضانات والزلازل أصبح يقترب من أفراد نوعه ويتواصل معهم، فاخترع وسيلة لتحقيق ذلك وهي اللغة، وذلك يعني أن الزلازل والبراكين قد ساهمت في تحول الاجتماع من اجتماع مؤقت إلى اجتماع دائم، فاللغة بفضل قدرتها على خلق التواصل بين الأفراد قد أدت إلى تكوين الأسر

[1]- جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، ص83.

[2]- نفسه، ص87.

[3]- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، كلمات عربية للطباعة والنشر، القاهرة، 2012، ص 213.

فكانت الأسرة أول شكل من أشكال الاجتماع، فتحول بذلك الإنسان من حياة الفوضى إلى حياة الأسرة، ذلك أن روسو يرى أن اجتماع الناس على شكل عائلات ينفعهم، فأدت بذلك فكرة العائلة إلى ظهور الحالة الاجتماعية وخروج الإنسان شيئا فشيئا عن حالة الطبيعة، وقد أدى اكتشاف الإنسان للحديد وفن الزراعة إلى ظهور الحالة المدنية، فتطورت بذلك العلاقات بين الأفراد وتم تقسيم العمل، ومن ثم فإن الملكية ظهرت بظهور الزراعة وابتكار صناعة استخراج المعادن، وبظهورها بدأ يظهر التفاوت والطبقية بين الأفراد ،فكان لابد من أن تؤدي زراعة الأرض إلى تقاسمها، والعمل في تلك الأرض خول في البدء الحق في غلتها، ومن ثم الحق في الأرض ذاتها، ومنه فإن الملكية هي العامل الرئيسي في ظهور التفاوت، فمن ملكية الأرض ظهرت مختلف الشرور، فعدها روسو منعطفا حاسما في تاريخ البشرية، وقد أدت إلى نشأة المجتمع المدني، يقول روسو: "**كان مؤسس المجتمع المدني الحقيقي هو الإنسان الأول الذي سور أرضا، فرأى أن يقول: "هي لي"، وقد وجد من البسطاء من يصدقونه، فكان مؤسس المجتمع المدني الحقيقي**"[1]. ومنه فإن للملكية أثر سلبي على حياة الإنسان الطبيعي، إذ أنه بسببها خرج الإنسان عن حياة البساطة والسعادة ليدخل في حياة التعقيد والفوضى، وعليه فإن المجتمع المدني هو مصدر الشرور.

و نجد فولتير voltaire* (1694-1778) هنا يوجه انتقاده الشديد لجون جاك روسو، حيث أنه يتحدث عنه بنبرة الاحتقار البالغ بخصوص مقطعه الشهير حول الملكية: "أول من سيج أرضا..." إذ يعلن الشخص المسمى C في الـ A,B,C "أنه يجب أن يكون لها ظريفا قاطع طريق ذلك الذي كتب هذه السفاهة" ويرد A "أني أظن فحسب أنه صعلوك كسول جدا... ويظهر لي مؤلف ذلك المقطع بأنه حيوان غير اجتماعي

[1]– جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: عادل زعيتر، ص57.

*- فولتير (1694-1778) كاتب ومفكر فرنسي شهير، ولد في باريس، كان أبوه موظفا في غرفة المحاسبات وفي الفترة من 1756 إلى 1759 نشر كتابه "أخلاق الأمم وروحها" وقصيدته الشهيرة عن زلزال لشبونة وشرع في نشر كتابات ضد التعصب الديني، وضد الدين بوجه عام، منها مسرحيات تعليمية ورسائل، توفي سنة 1778 في باريس.(انظر:عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة،ج2، ص201، 202).

للغاية"[1]. فمن هذا المقطع يظهر أن روسو يحمل الإنسان الذي نطق وقال" هذه الأرض تخصني "مسؤولية جلب الشرور للبشرية ،فالملكية هي رمز شقائنا ومصدر جميع الشرور، الأمر الذي دفع بفولتير للتعليق عليه وقد وصفه بالحيوان غير اجتماعي.

و قد وجد فولتير في نظرية روسو في الملكية الخاصة مزعجة وغير مقبولة كليا إذ قال إن هجوم روسو على الملكية الخاصة إنما هو هجوم على الحضارة بالذات[2].

و منه نستنتج بأن روسو كان يظن بأن ظهور الملكية الخاصة كان نذير شؤم على الإنسان، فقد كانت سبب خروجه عن حالته الطبيعية حياة السعادة والهناء، إذ شن عليها هجومه فهي سبب التفاوت والطبقية، وقد كان يتمنى لو أن الإنسان بقي على همجيته حيث لا وجود للملكية ولا للصراع والحروب، ومنه فقد أثار فولتير سخطه على روسو حيث رأى بأن هجوم روسو على الملكية هو هجوم على المدنية والحضارة وهو يظهر بذلك كعدو للمجتمع.

إن المجتمع المدني ينشأ نتيجة لزيادة حدة التفاوت والطبقية بين الناس، يقول روسو: **"إذا ما تتبعنا تقدم التفاوت في هذه الثورات المختلفة وجدنا أن وضع القانون وحق التملك كانا حده الأول، وأن قيام الحاكمية كان حده الثاني، وأن تحول السلطة الشرعية إلى سلطة مرادية كان حده الثالث والأخير، فأجيز حال الغني والفقير في الدور الأول وأجيز حال القوي والضعيف في الدور الثاني، وأجيز حال السيد والعبد في الدور الثالث الذي هو آخر درجة للتفاوت والحد الذي ينتهي إليه جميع الأخرى في نهاية الأمر**[3]، فالملكية هي التي أثبتت التفاوت، فأصبحنا نرى في المجتمع الواحد السيد والعبد، الغني والفقير، القوي والضعيف **"مما يتولد عنه شطط في اللصوصية، ضار بمصالح الأغنياء في المقام الأول، إلا إذا تفاهموا**

[1]- جان توشار: تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار، ج2، تر: ناجي الدراوشة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1، سوريا، 2010، ص 543.

[2]- رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث، دار القارئ العربي، ط3، القاهرة، 1994، ص 204.

[3]- جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: عادل زعيتر، ص76.

فيما بينهم لتعزيز موقفهم ولفرض أنظمة عامة تكفل استتباب السلم؛ وعندئذ يبدأ المجتمع، وتقضي القوانين التي تفرض قيودا جديدة على الضعفاء وتمد الأغنياء بقوى جديدة تفضي إلى غيرها عودة على الحرية الطبيعية، وتثبت شريعة الملكية والتفاوت"[1].

لقد كان لظهور الملكية أثر على الإنسان الطبيعي الذي كان يعيش حياة سعيدة ومستقرة، فبسببها خرج الإنسان عن حالته الطبيعية بصورة نهائية، ليدخل بذلك في حالة من الفوضى والحرب، وعليه فإن المجتمع المدني هو مصدر كل الشرور، إذ أن المجتمع المدني يظهر نتيجة تزايد حدة التفاوت بين الناس، والصراع بين الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، وقد لجأ الأغنياء، وهم أول المتضررين من حالة الحرب إلى الحيلة للإيقاع بالفقراء، فوضعوا بذلك أنظمة عامة وقوانين تحافظ على ممتلكاتهم وتؤمن الهدوء والسلام، هنا تبدأ الحالة المدنية المنظمة بالقوانين، فتثبت الملكية ويعم التفاوت بين الناس، وهكذا صار الإنسان الطيب بالطبع شريرا بالاجتماع، وبما أتاحه له من تقدم عقلي وصناعي.[2]

و من خلال ذلك نستشف بأن الإنسان قد انتقل من حالته الطبيعية إلى الحالة المدنية، لكن هذا التحول لا يتم بشكل مباشر، بل عبر سلسلة تطورات تاريخية متعاقبة، وهو دليل على وجود عوامل تاريخية أثرت على الإنسان الطبيعي، فخرج بذلك من حالته الطبيعية إلى حالة التمدن، فالإنسان قد دعته الضرورة لإقامة طبيعة أخرى تلائم تطوراته، فتطور الحياة أجبر الناس على التعاون فيما بينهم من أجل التغلب على قساوة الطبيعة، كما أن لجوء الناس إلى تكوين الأسر كان أمرا محدودا غير أنه بدأ ينتشر ليشمل الجميع، وقد أدى احتكاك الناس بعضهم ببعض إلى ظهور المجتمعات البشرية.

و عليه فإن الاجتماع شر ومصدر كل شر، ذلك أن الأنانية والحروب والتفاوت لا تظهر إلا في حال الاجتماع، فصار الإنسان بذلك شريرا منذ أن صار كائنا اجتماعيا.

---

[1]- اميل برييه: تاريخ الفلسفة، ج5، ص 198.

[2]- جميل الحاج: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت ،لبنان، 2000، ص 267، 268.

المبحث الثاني: فساد أخلاق الإنسان المدني.

الحالة الطبيعية مبنية على الخيرية غير أن تلك الحالة لم تبق على حالها إذ سرعان ما بدأت في الانحراف شيئا فشيئا لتظل بذلك طريق الفضيلة والسعادة لتخطو خطوة نحو الفساد والانحلال، فما سبب ذلك؟

أولا: التفكير العقلاني وفساد الأخلاق:

الإنسان الطبيعي في نظر روسو كان يعيش حياة مبنية على الخير والسعادة، وهذا راجع إلى حالة التوحد والعزلة التي كان يعيشها، ولكن ما إن أحس بأنه في حاجة إلى الآخرين حتى بدأت ملامح الشر تظهر، إذ أن روسو يرى بأن نشأة الشر كانت نتيجة إقامة الإنسان علاقات اجتماعية مع غيره، ذلك أن فساد الأخلاق قد اقترن بالمجتمع، حيث كان يعتقد روسو أن التفكير العقلاني أدى إلى انحطاط الأخلاق وفساد الذوق.

لقد ارتبطت حالة التفكير العقلاني عند الإنسان بطبيعة العلاقات التي تجمع بينه وبين أفراد نوعه، فنتيجة لتلك العلاقات الاجتماعية بدأت تظهر لديه أفكار ومعاني جديدة تنمو وتتطور شيئا فشيئا، فحصل الإنسان بذلك على كم هائل من العلوم والفنون نتيجة ذلك التطور، فخرج الإنسان عن حالته الأولى حياة البساطة والعزلة ليدخل في الحياة المدنية، ومنه فإن هذا التقدم الذي أحرزه الإنسان قد ساهم في فساد الأخلاق، فالتفكير حسب روسو يؤدي إلى الشر والعدول عن السلوك السوي، ولهذا فلم يكن الإنسان الطبيعي بحاجة إلى التفكير فالطبيعة قد وفرت له جميع متطلباته الغريزية، ومن ثم فإن الطبيعة تضاد العقل، يقول روسو في هذا الصدد:"**حالة التفكير حالة تضاد الطبيعة، وإن الإنسان الذي يتأمل (بعقله) حيوان فاسد**"[1]، ونستشف من خلال هذا القول بأن أي تطور في التفكير، تتبعه حالة من الفساد والانحلال الخلقي، فروسو يرى أن ذلك التقدم قد ساهم في خروج الإنسان عن حالته الأولى الخيرة، التي امتازت بصفاء النفس، وتعاطفها مع الآخرين لتنحو منحى الفساد والانحطاط، ونجده في هذا يقول:"**و مما هو أيضا أشد**

[1]- جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم، ص80.

قسوة أن جميع أسباب تقدم النوع البشري لا تفتأ تبعده عن حالته البدائية وأنه كلما حشدنا معارف جديدة، زدنا تخليا عن الوسائل التي بها تكتسب أكثرها أهمية"[1].

يؤكد روسو أن أي تطور يشهده التفكير العقلاني، يأتي مصحوبا بفساد في الأخلاق، وهذا ما أكده استقراء التاريخ، إذ تبين أن تاريخ الفكر البشري هو تاريخ يسير نحو الشرور بتقدم العلوم والفنون، وروسو يرى أن:"**التفكير مناقض لطبيعة الإنسان وإن الإنسان المفكر حيوان سافل فاسد الأخلاق. ومن الأفضل لنا التخلي عن تطورنا العقلي السريع والاتجاه بدلا من ذلك إلى رياضة القلب والمحبة إن التعليم لا يحيل الإنسان فاضلا وصالحا ولكنه يجعل منه حاذقا وبارعا في الغش عادة**"[2]، وقد رد روسو أسباب سقوط حضارات مصر واليونان وروما إلى تقدم العلوم والفنون وإلى آثار الترف، إذ أصبح التفكير العقلاني سببا من أسباب تدهور الأمم وضياع أخلاقها وقوتها، ويضرب جون جاك روسو مثالا على ذلك باليونان فيقول: "**أنظروا إلى اليونان التي كانت من قبل مسكن الأبطال... والآداب الناشئة لم تعمل على فساد الأخلاق في قلوب سكانها، لكن تطور الفنون وانحطاط الأخلاق واستعباد المقدونيين كان يلحقهم عن قرب ، واليونان دائما عالمة دائما محبة للذات ودائما مستعبدة".**[3]

من خلال ذلك نستنتج بأن روسو يؤكد على تأثير العلوم والفنون في الأخلاق حيث أنهما أفسدا الأخلاق وكرسا الشقاء والشرور من خلال ما ترتب عليهما من ترف وحضارة، وبهذا فقد أصبح المجتمع يشهد انتشار الرذائل واختفاء الفضائل، مما أدى إلى إنتاج إنسان فاسد أخلاقيا، ذلك أن العلم "**سبب التقدم**

[1]- جون جاك روسو :خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم، ص52.

[2]- ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، تر: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، ط6، بيروت، 1988، ص324.

[3] -J-J- Rousseau :Discours sur les sciences et les arts. Librairie générale françaises. 2004.p 34.

" voyez la Grèce , jadis peuplée de héros qui vainquirent deux fois l'Asie… les lettres naissantes n'avaient point porté encore la corruption dans les cœurs de ses habitants ; mais le progrès des arts, la dissolution des mœurs et le joug du macédonien se suivirent de prés ; et la Grèce toujours voluptueuse, et toujours excaver".

الحضاري من جهة، وسبب إعراض الإنسان من جهة أخرى عن القيم... ولعله أيضا سبب تمزقه وحيرته وضلاله، والعامل الرئيسي الذي سيقضي عليه"[1].

إن التقدم الذي أحرزه العلم قد أدى إلى إفراغ الإنسان من محتواه الروحي والعاطفي، وسيطرة الجانب المادي النفعي الذي قتل فيه الرغبة في الحياة، فأظل الإنسان بذلك طريق الفضيلة والسعادة، ومنه فتطور العلوم والفنون في نظر روسو لم يسهم في سعادة الأمم بقدر ما ساهم في إفسادها، ونتيجة لذلك بدأت تظهر مختلف الشرور التي أصبحت تسيطر على الإنسان، يقول روسو: "**فمثلما أن انحلال الأخلاق يتبع بالضرورة الترف، فقد جرد بدوره فساد الذوق"**[2]، فالترف يكون دائما مقترنا بالعلوم والفنون ويكون أكثر انتشارا بارتقائها وازدهارها، مما يؤدي ذلك إلى فساد الذوق وانحطاط الأخلاق إذ "**أن أخلاقا أخرى أسوأ تتبع الآداب والفنون، مثل الترف ولد مثلها من الفراغ ومن كبرياء الإنسان"**[3].

يؤكد روسو أن المجتمع الذي تهيمن عليه العلوم والفنون هو مجتمع مليء بالتفاوت والطبقية، فقد أصبح الناس يتمايزون ويبتعدون عن معالم المجتمع السليم، كما أنها كلما تقدمت أمعنت في إفساده، ويستشهد روسو على ذلك بما حل بمصر وأثينا وبيزنطة إذ كان مآلهم السقوط أو شيوع الرذيلة فيهم، حالما بدأوا في الاهتمام بتقدم العلوم والفنون والآداب، فهي تحدث الفراغ الروحي، وتؤدي إلى الترف ومن ثم اختفاء الفضائل الإنسانية وانتشار الرذائل وفساد النفوس وحلول الشقاء يقول روسو :"**فعن الفنون غير المفيدة والفنون الضارة والعلوم التافهة نشأت طوائف من المبتسرات المخالفة للعقل والسعادة والفضيلة على السواء"**[4]، فقد أدى ازدهار

[1]- الربيع ميمون:نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 71.

[3]- J-J Rousseau : discours sur les sciences et les arts, p62.

"c'est ainsi que la dissolution des mœurs, suit nécessaire du luxe , entraine à son tour la corruption du gout".

[3] -Ibid, p57. "d'autre maux pires encore suivent les lettres et les arts, tel est le luxe , né comme eux de l'oisiveté et de la vanité des hommes".

[4]- جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: عادل زعيتر، ص 79.

الفنون والعلوم إلى الشتات والتفرقة بين أفراد المجتمع، وانهيار العلاقات العاطفية بين أفراد الأسرة الواحدة، وبهذا فإن المادية قد قضت على الروابط المعنوية والروحية بينهم.

ومنه فإن روسو يرى بأن العلوم والفنون هي المسؤول تاريخيا عن انتشار مختلف الشرور كالكذب والخداع، وأن الفساد الخلقي ينمو بنمو المدنية وازدهار الحضارة، كما أنه يؤكد على أن الثقافة تحمل بذور الشر في طياتها أكثر من بذور الخير.

يذهب روسو إلى القول بمفاسد المدنية وهو قول يتطابق مع قول الكلبيين القدامى فالروماني آل أمره إلى الانحطاط حالما أتقن علوم اليونان فأدان روسو بوجه خاص انتشار الأنوار ورواجها بين الناس [1]، وهكذا دائما في كل عصر كان الترف والانحلال والعبودية ومختلف الشرور عقابا على تلك الجهود التي بذلت للخروج عن حياة الجهل السعيدة، ذلك أن الفنون ومختلف العلوم والمعارف لا تؤدي إلى طريق الفضيلة، فقد كانت سببا في نشر اللهو والترف، ولقد شدد روسو على القول بأن الفنون والعلوم كانت دائما مفسدة للحضارة، وأنها السبب في خروج الإنسان عن حالة الطبيعة، لكن تجدر الإشارة إلى أنه لا يجب أن نفهم من هذا بأن روسو يرفض رفضا قطعي العلوم والفنون في حد ذاتها بل بسبب ما انجر عنها من اضطراب وانحطاط وفساد أخلاقي.

ومن هنا فجون جاك روسو يدين غرور العقل البشري وكبرياءه، فلم يكن مناهضا للحضارة بأكملها بل وكان معاديا لتلك الطبقة العليا المسؤولة عن إشاعة الفساد في عصره، وهو يرى بأن خير وسيلة للقضاء على مساوئ العلوم والفنون هي العودة إلى أحضان الطبيعة أين توجد الفضيلة الأمر الذي دفع بفولتير إلى التعليق بسخرية على قوله :"**إن روسو يريد للإنسان العودة إلى استخدام يديه ورجليه في سيره**"[2].

[1]- اميل برييه: تاريخ الفلسفة، ج5، ص 194.

[2]- رونالد ستروميرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث، ص 203.

ومن خلال ذلك نلاحظ أن روسو يريد العودة إلى حياة الطبيعة لأنها خير تجسيد لمعاني الفضيلة وهو يرى في الفضيلة أرقى علم، لذلك نجده يثني على الجهل بل ويفضله على العلم والمعرفة، ويوجه خطابه للفضيلة فيقول:" **أيتها الفضلة ! أليست مبادئك منقوشة في كل القلوب ويكفي الإنسان لمعرفة قوانينها أن يرجع إلى نفسه ليسمع صوت ضميره في سكوت الأهواء**"[1]، ونستشف من خلال هذا أن الفضيلة هي ذلك العلم الأسمى الذي كانت حالة الطبيعة تتميز به، إذ نجد مبادئها مطبوعة في كل القلوب، وقد كانت الفضيلة هي العلم الذي يزين النفوس التي كانت تعيش في حالة الطبيعة.

ثانيا: نشأة الحب الخاص L'amour propre:

الإنسان الطبيعي كان يعيش حرا مستقلا وسعيدا، خير بطبعه وخيرته تقوم على حب الذات والشفقة والتعاطف مع الآخرين، غير أنه بعد خروجه عن حالة الطبيعة وانخراطه في خضم الحياة الاجتماعية، وتكوين علاقات مع غيره، أول شعور راوده هو الشعور بالكبرياء، وقد نتج هذا الأخير ما إن "**بدأ كل فرد يرمق الآخرين ويريد أن يرمقوه، والتقدير العام كانت له قيمته**"[2]، ذلك أنه من تلك العلاقات التي كان يقيمها الإنسان مع غيره، دخل في جملة من المقارنات مع الآخرين من خلالها عرف الإنسان أن له مكانة وتقدير بين الناس، فقد كان يسعى دائما أن يكون محل إعجابهم وتقديرهم، غير أنه لم يكن مهتما بتقديره لذاته لأن الفرد أصبح يهتم بالآخرين، ويريد أن يكون محل اهتمامهم، فيتحول اهتمام الإنسان خارج ذاته، هنا بدأ يظهر الحب الخاص وهو يختلف كل الاختلاف عن حب الذات، ذلك أن الحب الشخصي "الحب الخاص" (L'amour propre) يرتبط بالأنانية، أما حب الذات (Amour de soi) فهو من فطرة الإنسان الطبيعي ولا يتعدى غريزة حفظ البقاء.

---

[1]-J-J- R ousseau : discours sur les sciences et les arts, p78.

"O vertu !... tes principes ne sont ils pas gravés dans tous les cœurs, et ne suffit il pas pour apprendre tes lois de rentrer en soi même et d'écouter la voix de sa conscience dans le silence des passions".

[2]- جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، ص94.

الإنسان الطبيعي بعد خروجه من حالة الطبيعة، تلك الحالة المبنية على العواطف الخيرة ودخوله في الحياة الاجتماعية، بدأ يظهر لديه الحب الخاص، فأصبح الإنسان يصدر أحكاما لا يقر بها القلب لأنها كانت خاضعة لسيطرة العقل، فإذا كان الإنسان يهتم بنظرة الآخر وتقديره له، فإنه في مقابل ذلك يصبح الآخر عائقا وخصما له، فيتحول اهتمامه إلى منافسته والحقد عليه، بل ويحمل له مختلف الشرور، إذ أنه من الأحكام التي يطلقها على غيره والتي تكون فيها السيطرة للعقل على حساب القلب ينشأ الشر الخاص يقول روسو: "**إن الشر الخاص ليس إلا عاطفة كائن يعاني، وهي عاطفة لم يأخذها الإنسان من الطبيعة، بل اكتسبها**"[1]، ومن هنا فقد نتجت أهواء اجتماعية ترتبت عليها العديد من الشرور نتيجة سعي الإنسان لإيجاد صورته حسب نظرة الآخرين، وبينما كان الإنسان الطبيعي يعيش منعزلا ومنفردا، يتميز بصفاء الروح ونقائها إلا أنه عندما أقام علاقات اجتماعية مع غيره، أصبحت أهواءه تعبر عن شهواته يقول روسو: "**الضمير صوت الروح والأهواء صوت البدن**"[2]، ففي الحب الخاص يلجأ الإنسان إلى الآخر ليرى فيه صورته، فيأخذ بذلك الغير محل الأنا ومنه فإن كل صورة تصل للإنسان من خلال نظرة الآخرين تبقى صورة مزيفة لا تحمل أي نوع من الحقيقة.

الحب الخاص شر مصدره الآخر فلا علاقة للذات به، بمعنى أن الشر يأتي من المجتمع أي أنه مستقل عن الذات.

إن الإنسان الهمجي في نظر روسو يعيش في نفسه مستقرا وسعيدا، يفيض بالمعاني والخصائص الخيرة وعلى رأسها عاطفة حب الذات، أما الإنسان المتمدن فهو يعيش خارج ذاته من خلال حبه الخاص يقول روسو: "**إن المتوحش يعيش مع ذاته، أما الإنسان الاجتماعي فهو دائما خارج ذاته ولا يعرف**

---

[1] -J-J- Rousseau : Emile ou de l'éducation , p 136.

" Le mal particulier n'est que dans le sentiment de l'être qui souffre ; et ce sentiment ne l'a pas reçu de nature, il se l'est donné" .

[2] -Ibid, p 146

" la conscience est la voix de l'âme, les passions sont la voix du corps".

العيش إلا من خلال آراء الآخرين، ومن هذه الآراء تنبثق عاطفة حبه الخاص"[1]، ومنه فإن الحب الخاص هو الحامل لمختلف الشرور، وهو رمز للبؤس والشقاء والأنانية وهو الذي يجعل الإنسان المدني تابعا لآراء الآخرين، بل ويفقد أهم جوهر كان يتمتع به، ويعبر عن خيرته في الحالة الطبيعية وهو حريته، إذ أنه يبقى حبيسا وعبدا لآراء ونظرة الآخرين، حتى أن رغبات الإنسان تصبح من توجيهات المجتمع لا من رغبته الذاتية، ومنه فإن المجتمع يعكس صورة مزيفة وغير حقيقية، جردها الحب الخاص من طبيعتها الخيرة، ليظهر عوضا عنها الحقد والكبرياء والحسد والغيرة والمنافسة بين أفراد المجتمع الواحد، ومختلف الأهواء العنيفة التي يجسدها الحب الخاص ذلك أن: "**الأهواء اللطيفة تنشأ من حب الذات والأهواء العنيفة تنشأ من الحب الخاص"**[2]، فالحب الخاص يجسد تلك الأهواء المترتبة عن سلسلة من المقارنات، بل ويزداد اتساعا كلما زادت تلك المقارنات مما يدفع إلى شدة المنافسة وانتشار الكراهية والعداوة بين الناس.

الحب الخاص في نظر روسو هو سلاح ذو حدين فهو نافع من جهة وخطير من جهة أخرى، يقول روسو: "**فالحب الخاص أداة نافعة لكنه خطير، فهو دائما يجرح اليد التي تخدمه ونادرا ما يصنع الخير دون الشر"**[3].

من خلال ما سبق نستنتج بأن الحب الخاص حسب روسو هو سبب الشر، وينشأ نتيجة لتبعية الإنسان للآخرين وعدم استقلاله عنهم، كما أنه يترتب عن فقدانه لحريته، ومنه فإن الإنسان الطبيعي كان يعيش مع ذاته ويكفي نفسه بنفسه، يحيا حياة حرة ومستقلة وخيرة وتلك الخيرية تفيض عن عاطفتين ملازمتين لتلك العزلة التي كان يعيشها وهما عاطفتي الشفقة وحب الذات، أما الشر فهو نتيجة لخروج الإنسان عن تلك العزلة وإقامة علاقات اجتماعية مع الآخرين، وهو ما يتجسد من خلال الحب الخاص فهو شر اجتماعي.

---

[1]- جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، ص135.

[2] -J-J- Rousseau : Emile ou de l'éducation , p 07.

" les passions douces et affectueuses naissent de l'amour de soi, et les passions haineuses et irascibles naissent de l'amour propre".

[3] -Ibid, p 65.

" l'amour propre est un instrument utile mais dangereux ; souvent il blesse le main qui s'en sert, et fait rarement du bien sans mal".

المبحث الثالث: انهيار خيرية الإنسان الطبيعي.

الإنسان قبل أن يدخل في علاقات اجتماعية مع غيره ،كان يفيض بالمعاني والمبادئ الخيرة تلك الحالة التي كان يتمنى عدم مغادرتها، غير أنها بدأت تتلاشى وتنهار، فبما نفسر ذلك؟

أولا: المجتمع وتزييف فضائل الإنسان:

مما لا شك فيه أن جميع الأفراد يسعون جاهدين لبلوغ مكانة داخل كل تنظيم اجتماعي، محاولين بذلك الحصول على إشادة وثناء ذلك المجتمع حيث "**أن أكثرهم إجادة للرقص أو الغناء، وأجملهم وأقواهم وأوفرهم لباقة أو فصاحة، هو أكثرهم مدعاة للتقدير**"[1]، غير أن ذلك التقدير والإشادة من طرف المجتمع لا يمكن لأي واحد الحصول عليهما، فلا نستطيع أن نتجاهل بأن هناك اختلاف وتفاوت بين الأفراد فقد أصبح التمايز يعلي من شأن البعض ويحط من شأن البعض الآخر "**فمن هذه التفضيلات الأولى نشأ الاعتداء بالنفس والاحتقار من جهة، ونشأ الحياء والحسد من جهة أخرى**"[2]، أي من هذا التفاضل والتفاوت بدأت تظهر مختلف مظاهر الاعتداء بالنفس والازدراء والكبرياء لدى أولئك الأفراد المتميزين، ومن خلال تلك المشاعر بدأ الإنسان يحس بذلك التقدير والثناء الذي كان يرغب في الحصول عليه، ومن ثم فقد أصبح شغل الإنسان الشاغل إبداء تلك الصفات الخيرة داخل المجتمع وإخفاء الشريرة منها، فأصبح الإنسان يظهر بوجهين لا بوجه واحد يقول روسو: "**وعندئذ فقد نمت جميع ملكاتنا وأصبح بعد ذلك امتلاكها أو تكلفها... و كينونة الإنسان ومظهره أصبحا أمران يختلفان كل الاختلاف**"[3].

لقد أدى تطور التجمعات إلى تزييف الفضائل الإنسانية، وذيوع الصفات الشريرة كالفخر والغيرة والحسد والمكر ذلك أن "**تطور التجمعات، وتنوع العلاقات، وسع نشاط المقارنة والحكم. و أصبح الفرد**

[1]- جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البش، تر: بولس غانم، ص 124، 125.

[2]- نفسه، ص125.

[3]- جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، ص103.

يهتم بالآخرين، ويريد أن يكون محل اهتمام، فالمتميز بجماله أو بصحته، أو بحركاته يصبح مثيرا للإعجاب: الذي يتولد عنه فخر من هنا، وحسد من هناك. ويصبح الحكم قيمة و تفضيلا"[1].

لقد أصبح مفهوم الصدق والتعاون والشرف عبارة عن تصورات مجردة من المعاني الخيرة كمعنى الرأفة والرحمة والشفقة، وذلك راجع إلى أن الأفراد في تحديد علاقاتهم أصبحوا يحتكمون إلى العقل على حساب القلب، ومنه فإن ذلك الشرف والمجد الذي كان كل واحد يسعى للوصول إليه، أصبح يرتكز على آراء الناس حتى ولو كانت آرائهم وتقديراتهم مزيفة يقول روسو في هذا الصدد: "**لو اكتفينا بالرجوع إلى مشاعرنا لاستطعنا أن نتبين بسهولة الفضيلة والجمال... يوجد في ما ندعوه بالشرف فارق محسوس بين ما يستند إلى رأي الناس و ما يستمد من التقدير الذاتي، فالأول لا يعدو أن يكون تلك الضجة التي تثيرها الأهواء السخيفة وهو لا يزيد ثباتا عن الريح"[2].**

يرى الأفراد أن السعادة الحقيقية هي التي يحصلون فيها على إعجاب وإشادة المجتمع وتقديره، لكنهم كانوا على جهل تام من أن السعادة الأبدية هي تلك السعادة المبنية على أساس روحي لا مادي نفعي ومن هنا "**فالشرف الذي يسبغه الناس قد يساعد في نجاح الإنسان المادي، لكن لا تأثير له في احراز السعادة الحقيقية لأنه لا يصل إلى الروح**"[3]، ومن خلال ذلك نستشف بأن اقتلاع ونيل الإنسان على تقدير وإعجاب المجتمع، يساعد على تحقيق إنسان مادي على حساب الجوهر الروحي، إذ أن الفضيلة تصبح عبارة عن أفكار تعبر فقط عن مظاهر الأشياء لا عن باطنها وجوهرها.

إن الطمع والكراهية والنفاق والكذب في نظر جون جاك روسو، هم نتيجة الفصاحة ذلك أن التكلف في الفصاحة، يؤدي بصاحبه إلى إخفاء تلك النوايا السيئة عن الناس، وإبعاد الشك

[1]- بليمان عبد القادر: الأسس العقلية للسياسة، ص 79.

[2]- رومان رولان: آراء روسو الحية، ص 113.

[3]-نفسه، ص113.

عنها بهدف تحقيق أهدافهم ومصالحهم الخاصة يقول روسو: "**فعندما يطرق الإنسان أي موضوع نجده يعبر عن الآراء السائدة حوله وآراء أقرانه أكثر من عن آرائه، وتراه يبدل هذه الآراء كلما تغير وضعه أو ظرفه وهكذا فإن الناس لا يفصحون عن مشاعرهم بل عن تلك التي يودون أن يبثوها في الغير وما الحماسة التي يتذرعون بها سوى قناع لمصالحهم**"[1].

ومن هنا فقد أدى المجتمع إلى تغيير فائدة الفصاحة عن القيام بدورها الحقيقي، لا بل حولها من أداة لإزالة الغموض والإبهام عن الحقائق إلى مجرد أداة لتزييفها وتظليلها، ومن ثم فقد تحولت معاني الصدق والشفقة والتعاون التي كانت تميز خيرية الإنسان الطبيعي، فلم تعد الغاية من القيام بها كغاية في حد ذاتها، وإنما أصبح الهدف منها نيل التقدير والإعجاب، كما أن سلوكه لم يعد سلوكا نابعا عن شعور إنساني، وإنما أصبحت الغاية منه تحقيق منفعة مادية لا غير، إلا أنه تجاهل حقيقة "**أن المال ليس هو الوحيد الذي يفتقر إليه البائسون، وأن أولئك الذين لا يحرك فيهم الإحساس إلا محافظ نقودهم تجردوا من الإحساس**"[2].

من خلال ذلك يرى روسو أن السعادة الحقة والأبدية التي يصبو كل إنسان لتحقيقها لا تتوقف على تحقيق الجانب المادي والسعي نحو جمع الثروة، فإذا كان وجود السعادة مرهون بجمع الثروة والمال، فكيف نعلل عيش الإنسان الطبيعي في سعادة وهو لم يعرف معنى المال والثروة؟ فقد كان يعيش حياة بسيطة وسعيدة، لا تعقيد ولا معنى لجمع المال فيها، وكان روسو يذكرنا بأنه نموذج ذلك الإنسان البائس الذي لم يعرف طريقا للترف والثروة.

يرى روسو بأن الفضائل المزيفة قد أدت إلى فساد طبيعة الإنسان الطبيعي في المجتمع، فقد حلت الفضائل المزيفة محل تلك الفضائل الطبيعية، فانتشر بذلك الشر وعم الفساد داخل المجتمع، ذلك أن تزييف الفضائل وفسادها قد ارتبط بالأساس بنشوء المجتمع وتنوع علاقاته، ولأن "**الفضيلة والنزاهة لا تستند**

[1]- رومان رولان :آراء روسو الحية، ص 122.

[2]- نفسه، ص 124.

إلى آراء الناس بل إلى طبيعة الأشياء"[1]، ذلك أن مبادئ الفضيلة ثابتة وواحدة في كل زمان وحيثما ذهبنا، إلا أن الحاملين لمعاني الفضيلة يشكلون فئة قليلة مقارنة مع الناس الأشرار.

ثانيا: الملكية ونشأة الأهواء العنيفة:

لقد كان الإنسان سعيدا دائما حتى جاءت اللحظة التي بدأ يحتاج فيها للآخرين، وتكوين علاقات اجتماعية معهم، فأصبح يدرك أسباب التفاوت والتفاضل بينهم فحينئذ اختفت المساواة وظهرت الملكية إلى الوجود، ذلك أنه بعبارة بسيطة ولكنها تفيض بمعاني الأنانية قال الإنسان "**هذا لي**"[2]، وقد كان ذلك كإعلان عن بداية ظهور حق الملكية وبداية نشأة جميع الشرور، فظهور الملكية شكل منعرجا حاسما في تاريخ البشرية، إذ أنه مع ظهورها بدأت تختفي المعاني الخيرية في الإنسان، فكيف نبرر قولنا أن نشوء الملكية قد كان عاملا من عوامل حصول الشر؟

يعتقد روسو أن فكرة الملكية لم تظهر دفعة واحدة لدى الإنسان بل كان ذلك نتيجة لتطور بطيء وطويل، وقد أدرك الأفراد أن تقاربهم واجتماعهم على صورة عائلات فيه منفعة لهم، فأصبحت فكرة العائلة بداية للملكية، وقد أكد روسو أن الملكية هي مصدر كل فساد وشر، ويتجسد هذا بوضوح في كونها السبب الفعلي في بروز التفاوت بين الناس، مما مهد لظهور الرذائل كالاعتزاز بالنفس والازدراء والحسد والجشع، غير أن روسو يقر بأن للملكية جانبان: الجانب السلبي الذي يظهر من خلال أنها مصدر الشرور والجانب الايجابي الذي يتجلى في أنها المحفز الحقيقي على العمل ودافع من دوافع التقدم الحضاري، غير أن تفاقم الفوارق بين البشر من حيث القدرات والكفاءات والمواهب، لم يمنع من سيطرة أثرها السلبي على الناس فقد ساهمت

[1]–رومان رولان: آراء روسو الحية، ص 116.

[2]– جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم، ص 117.

في ترسيخ الملكية وتوطيد التفاوت بينهم يقول روسو في هذا: "**وكان من الجائز في هذه الحالة أن تظل الأمور متساوية لو أن المواهب كانت متساوية**"[1].

كانت الملكية دافعا لتطور الأهواء الطبيعية لتنحو منحى آخر وتصبح أهواء اجتماعية نتيجة لتلك العلاقات الجديدة التي لا أساس لها في الطبيعة، إذ أن الأهواء الاجتماعية والأهواء الطبيعية مختلفان، ذلك أن الأهواء الطبيعية تؤكد على سيطرة القلب على العقل ومنه فهي طريق لتحصيل السعادة، بينما الأهواء الاجتماعية فهي عكس ذلك ففيها تكون السلطة للعقل وهو ما مهد لظهور الطمع والجشع والحسد لدى الإنسان.[2]

لقد ارتبط تطور الأهواء برغبة الإنسان في التملك، فالملكية تساعد على تحريك وتطور نشاط الأهواء، ومنه فإن "**الأهواء تتطور بسبب وجود الخيرات، فهي تثير منطق التملك**"[3].

أصبح الناس نتيجة تعدد مطالبهم وحاجاتهم خاضعين لغيرهم، وأصبح كل فرد عبدا حتى ولو كان سيدا على غيره، فكل إنسان محتاج إلى خدمات ومساعدات الآخرين، وقد كان اهتمام الإنسان بتكوين الثروات من أجل منافسة الآخرين لا من أجل استخدامها لغرض معين، مما انجر عنه نزعة شريرة لإيذاء الغير بدافع الحقد والحسد، ومنه فإن هذه الشرور نتيجة للملكية والتفاوت، وقد ارتبط الشر المترتب عن التفاوت بين الناس بنشوء المجتمع فالإنسان في حالة الطبيعة كان يعيش على جهل تام به، ومن ثم فأصل وجود المجتمع المدني وضروب التفاوت المترتبة عليه في الملكية، فرغبة الإنسان في التملك من أجل التفوق هو أصل كل شر، فأصبح يرى أصحاب القوة أن ملكية الأشياء بمثابة حق لهم يجب الحصول عليه يقول

[1]– جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر :بولس غانم، ص 130.

[2]– جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، ص 104.

[3] –Marcel hénaff : Rousseau, le contrat, le silence des passions, p129.

" les passions se développent ici en raison de l'existence de bien, elles déclenchent une logique l'appropriation".

روسو: "**وهكذا فإن أكثر الناس قدرة أو أكثرهم بؤسا قد جعلوا إن من قوتهم وإن من خصاصتهم ضربا من الحق لهم في مال غيرهم مكافئا لحق الملكية**"[1]، فالإنسان لم يعد يكتفي بالاستيلاء على ممتلكات الآخرين وحسب بل إن الجشع والطمع قد دفعا به إلى الرفع من قدرته على التنافس، وهكذا فقد انتقل مجال المنافسة من امتلاك الثروات الطبيعية إلى امتلاك الإنسان نفسه، وهنا يظهر الطمع الذي جسده الإنسان من خلال اخضاع الآخرين له واستعبادهم يقول روسو: "**ولكن الأمر يختلف في المجتمع المدني، حيث يعمل الإنسان على توفير ما هو ضروري لنفسه ثم الكمالي الفائض، وتجيء بعد ذلك الملذات، فضخام الأمور، فالأتباع فالعبيد**".[2]

فبعد أن كان الناس أحرارا ومستقلين ،أصبحوا الآن نتيجة لتعدد رغباتهم وحاجاتهم خاضعين لغيرهم من الناس، فانقلبت بذلك علاقة السيد بالعبد فقد أصبح العبد سيدا والسيد عبدا، بالإضافة إلى أن كل فرد أصبح عبدا حتى ولو كان سيدا على الآخرين، فإن كان غنيا احتاج إلى خدمات الآخرين وإذا كان فقيرا احتاج إلى مساعدتهم، وبهذا فإن وجود السيد لا يتحقق إلا من خلال وجود العبد يقول روسو:" **تعدد الحاجات جعل الإنسان خاضعا للطبيعة،... بحيث أصبح إلى درجة ما عبدا ولو كان سيدا على غيره**"[3].

روسو لم يكن يميل إلى أن يضفي طابع الحق الطبيعي على الملكية، فقد كان يعدها مؤسسة تاريخية وعامل سلبي في تاريخ الإنسانية، فمن ملكية الأرض بدأت تظهر الخصومة والمنافسة من ناحية وتضارب المصالح من ناحية أخرى، كما أنها كرست العبودية والشقاء ذلك أن غيابها في حالة الطبيعة كان هو سبب عيش الإنسان في سعادة وهناء، وهذا بفضل سكوت أهواءه، أما بعد قيام المجتمع أصبحت الملكية بمثابة محفز

[1]- جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، بولس غانم ،ص 133.

[2]- جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، ص 156.

[3]- رومان رولان: آراء روسو الحية، ص 45.

للحرب تلك الحرب التي ما كان لها أن تظهر لو بقيت أهواء الإنسان ساكنة كسكونها في حالة الطبيعة ذلك أن "**الثمار للجميع وأن الأرض ليست ملكا لأحد**".[1]

هذا الانقلاب وهذه الثورة تعود إلى اكتشاف الزراعة والتعدين فكان لابد من أن تؤدي زراعة الأرض إلى تقاسمها كما يقول روسو، ذلك أن العمل في الأرض خول في البدء الحق في غلتها ومن ثم الحق في الأرض نفسها قبل أن تعطي ثمارها، غير أن ملكية الأرض لم تكن مضمونة بما فيه كفاية إذ لابد من البحث عن طرق جديدة لحمايتها، وقد لجأ الأغنياء وهم أول وأكثر المتضررين من حالة الحرب إلى الحيلة للإيقاع بالفقراء، فيزداد التفاوت ويتفاقم الخصام فيتمكن الأقوياء والأغنياء من تدعيم مكانتهم فيسنون قوانين عامة تصون لكل ملكه ويخضع لها الفقراء والضعفاء كي يدفعوا الشر عن أنفسهم، فتثبت الملكية ويوطد التفاوت، وهكذا صار الإنسان الطيب بالطبع شرير بالاجتماع.[2]

وعليه فإن فساد الأهواء هو فساد اجتماعي، نتج عن تطور المقارنات والرغبة في جلب اهتمام الآخرين واستغلالهم، وقد أدى نشوء الملكية إلى خروج الإنسان نهائيا عن حالة الطبيعة ليدخل في الحياة المدنية والانتقال من حياة المساواة والسعادة إلى حياة التفاوت والشقاء ومختلف الشرور.

[1]- جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم، ص 117.

[2]- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 214.

بناء على التحليل السابق يمكن القول أن: فلسفة روسو الأخلاقية قد بنيت على فرضية أن الإنسان خير بطبعه، وتلك الخيرية تقوم على العواطف الخيرة والتي تتمثل أساسا في عاطفتي حب الذات والشفقة، غير أن خيرية الإنسان الطبيعي لم تبق على حالها فقد بدأت في الانحراف شيئا فشيئا لتصل بذلك إلى قمة الشر، ومن بين الأسباب التي أدت إلى ذلك في نظر روسو قابلية الإنسان للتطور والكمال هذه الخاصية التي ساهمت في خروجه نهائيا عن حالة الطبيعة، ليصبح بذلك كائن تاريخي واجتماعي ،كما أن الملكية هي العامل البارز في ظهور المجتمع وقد عدها روسو نذير شؤم فمن ورائها ظهرت مختلف الشرور وعلى رأسها التفاوت والطبقية.

إن فساد الأخلاق قد اقترن بالمجتمع ومنه فإن تقدم المدنية قد ساهم في فساد الأخلاق، وعليه فإن التفكير العقلاني في اعتقاد روسو هو الشر عينة، فتقدم العلوم والفنون قد ساهم في اضطراب الحس الجمالي وفساد الذوق وخروج الإنسان عن حياة البساطة، والعدول عن طريق الفضيلة، وتكريس التفاوت والطبقية، وقد كان للحب الخاص تأثير على أخلاق الإنسان وانحلالها وذيوع الشرور وعلى رأسها الأنانية، إذن فالحب الخاص شر اجتماعي.

المجتمع هو العامل الرئيسي في تزييف الفضائل الإنسانية، وقد أدت تلك الفضائل المزيفة إلى فساد طبيعة الإنسان، فاختفت بذلك الفضائل الطبيعية المبنية على الخير فانتشر وعم الفساد الأخلاقي.

ومن خلال ذلك يمكن القول أن الإنسان الطيب بالطبيعة قد أصبح شريرا بالاجتماع، فالاجتماع شر ومصدر كل شر فالحروب والرذيلة والأنانية والفنون والعلوم لا وجود لها إلا في حال الاجتماع.

الفصل الثالث

الإصلاح الأخلاقي للشر

المبحث الأول: الإصلاح الأخلاقي للسياسة.

المبحث الثاني: الإصلاح الأخلاقي للتربية و الدين.

المبحث الثالث: نظرية الأخلاق عند روسو.

الفصل الثالث: الإصلاح الأخلاقي للشر

يعتبر روسو واحدا من بين فلاسفة عصر الأنوار، وقد أولى اهتمامه بقضايا مجتمعه، فثار على كل القيم السائدة ضد تطور العلوم، والإسهام في الثروة، ضد التغير في طبيعة الإنسان، وضد المجتمعات الجائرة، ومن هنا فقد ساهم في نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية والتربوية، ولا صلاح هذا الفساد اقترح روسو مشروعا فلسفيا يقوم على إصلاح جميع مجالات الحياة في المجتمعات البشرية، ورأى أن وسيلة الإصلاح لحال الإنسان، تكمن في إيجاد نمط تربوي سياسي كفيل بإصلاح المجتمع، وقد تمثل مشروعه الإصلاحي أساسا في كتابه التربوي "إميل" وكتابه "العقد الاجتماعي".

فما المقصود بالإصلاح الأخلاقي لكل من السياسة والتربية والدين؟

وما هي المبادئ التي تقوم عليها نظرية الأخلاق عند روسو؟

المبحث الأول: الإصلاح الأخلاقي للسياسة

كان لآراء روسو في السياسة تأثير كبير وقد كان من المؤمنين بأن الإنسان يولد طيبا ولكن المجتمع هو الذي يحول الناس، ويظهر كوامن الشر الموجودة فيهم، غير أن الناس تعاقدوا على الاجتماع لكي يوحدوا جهودهم في رقي الإنسانية وكمالها.

أولا– السياسة والأخلاق:

لقد بلغ الأفراد في الحالة الطبيعية مرحلة أصبحت فيها العقبات التي تضر بحياتهم أقوى بكثير من القوة التي يمكن لكل فرد استعمالها من أجل المحافظة على بقائه، غير أن هذه الحالة البدائية لا يمكن أن تدوم، فراح يبحث عن وسائل جديدة للعيش تخلصه من الهلاك[1].

[1]– جون جاك روسو: العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية، تر: عادل زعيتر، ص 43.

وقد لجأ الأغنياء وهم أول المتضررين من حالة الحرب إلى الحياة للإيقاع بالفقراء ولكي يضمنوا تطاولهم اقترحوا إبرام عقد اجتماعي، وقد ابتكروا كما يقول روسو أذكى خطة عندما قالوا للفقراء والضعفاء: "**لنتحد لكي نحمي الضعفاء من الاضطهاد ونحاصر الطامحين، ونضمن لكل شخص حيازة ماله: لننشئ نظما للعدل والسلام يكون جميع البشر ملزمين بالامتثال لها**"[1]، ذلك أن الأغنياء قد كانوا أكثر تأثرا بالأذى في جميع أموالهم وممتلكاتهم لذلك هرعوا لاتخاذ التدابير اللازمة لاتقاء ذلك الضرر، فكان من نتائج ذلك ظهور أول عقد اجتماعي.

غير أن روسو قد انتقد هذا العقد المستمد من آثار التاريخ الشرطي (الحرية والأمن مقابل التنازل والخضوع)، فهذا العقد الذي أبرمه الأغنياء يخلو من الشرعية اللازمة، وهو متميز بنشأة الملكية والصراعات الاجتماعية الناجمة عنها، لأن هذا العقد أجّل الحرب لكن لم يقض على أسبابها، إذن فهو عقد سيء لم يكن حلا حقيقيا، لأنه يقيم سلما أجوف ويبرر تاريخا غير شرعي[2].

وما دام أن الأغنياء قد كانوا أول المتضررين من حالة الحرب، ولأنهم عجزوا عن حماية أموالهم وجميع ممتلكاتهم، فراحوا يجبرون الناس على الانخراط في العقد، غير أن ذلك العقد يفتقر للشرعية إذ كان انخراط الفقراء فيه بدافع الضرورة لا بدافع الإرادة، ذلك أن: "**الاذعان للقوة هو عمل ضرورة، لا عمل إرادة، وهو أثر حذر غالبا، وما المعنى الذي يحمل به هذا على الواجب**"[3]، بمعنى أن هذا العقد الذي وضعه الأغنياء يستند إلى القوة وهذه القوة –حسب روسو– لا تخلق حقا مشروعا كما أنها لا تضمن استمراره، فالعقد يزول بزوال تلك القوة التي قام عليها.

[1]– جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، تر: بولس غانم، ص135.

[2]– بليمان عبد القادر: الأسس العقلية للسياسة، ص 76.

[3]– جون جاك روسو: العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية، تر: عادل زعيتر، ص33.

من هنا يظهر الإصلاح في رأي روسو على أنه إصلاح أخلاقي أكثر من كونه إصلاح سياسي، وقد انطلق في إصلاحه الأخلاقي من إيمانه بأن الحرية مبدأ أساسي لكل وجود إنساني ذلك أن "**الإنسان حر وحريته أعظم ما يملك**"[1]، فالخيرية تستلزم الحرية، وسعادة الإنسان تتوقف على الاستعمال الأمثل لحريته، ومن هنا فإن فعله للخير والشر نابعان عن ماهيته وجوهر ماهيته هي الحرية، إذ أنه يفعل الخير بحرية غير أنه في مقابل ذلك يفعل الشر بسوء استخدامها والافراط فيها بما أتاحته له المؤسسات الاجتماعية والسياسية من أسباب العدول عن السلوك السوي، ولما كان العقد الأول هو الذي يقف وراء انحراف وفساد الإنسان الطبيعي، فإن عملية إصلاح ذلك تتوقف أساسا على إصلاح السياسة حتى يصلح بذلك حال المجتمع فكل شيء يتعلق بالسياسة، وما دام "**يحتاج الإنسان الحر بطبيعته إلى الحكومة لكي ينظم الحياة المشتركة التي أصبح ملتزما بها**"[2]، فوجود الدولة ضرورة أخلاقية تحققها مرهون بنوعية كل نظام سياسي، ذلك أن الدولة وسيلة لتحرير الإنسان وتنمية الخير فيه، كما أنها تعيد الحقوق للناس في صورة حقوق مدنية بعد أن كانت حقوقا طبيعية، وهي الضامن لتحقيق فضيلة العدالة وتحقيق الأمن و الاستقرار.

نجد أن الحكومات المستبدة قد جعلت من الإنسان إنسان خاضع للأهواء والشهوات أي أنه أصبح شريرا، لهذا نجد بأن الدولة في نظر روسو قد أصبح لها غاية أخلاقية تتكفل بإصلاح انحراف المجتمع، ومن ثم محاولة العودة إلى حالة مماثلة لتلك الحالة التي كان يعيش عليها إنسان الطبيعة، تلك الحالة التي تكاد تكون خالية من الشرور، غير أن ذلك في اعتقاد روسو أمنية غير قابلة للتحقق ذلك أن: "**العصر الذهبي للمساواة والعدالة هو حلم جميل، ولكنه لا يمثل أمنية قابلة للتحقيق، ومع ذلك يمكن أن نعتبر حالة الطبيعة**

[1]– أندري كريسون: تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث، تر: نهاد رضا، منشورات بحر المتوسط ومنشورات عويدات، ط2، بيروت، باريس، 1982، ص 247.

[2]–ليوشتراوس وجوزيف كروبسى: تاريخ الفلسفة السياسية من جون لوك إلى هيدغر، ص147.

كمعيار ثابت تصحح عن أساسه حالة المجتمع المتحضر، وننطلق منه نحو بناء اجتماعي أقرب ما يكون إلى السلامة"[1].

إن السياسة موجودة من أجل حماية الفرد والمحافظة على كرامته ومنه فهي مسخرة لخدمته، فالفرد سبب وجودها، وقد وجدت الدولة والسياسة أساسا من أجل تحقيق الأمن والاستقرار والعدالة وضمان الحرية للأفراد، ولهذا فإن وجود الدولة في نظر روسو يرتبط بالغاية الأخلاقية[2].

السيادة عند روسو تعبير عن الإرادة الكلية العامة للشعب، وقد كان يسعى إلى أن تكون "**السيادة للشعب وتأسيس نوع من الديموقراطية المباشرة باسم الإرادة العامة"**[3]، ومنه فقد رفض روسو كل سيادة لا تعبر عن سيادة الشعب، ذلك أن كل سيادة غير سيادة الشعب فهي تمثل انحراف سياسي، وعليه يجب أن تبقى السلطة السيادية من حق الشعب وحده.

ولهذا فإنه بإصلاح الأخطاء والانحرافات التي اقترفتها المؤسسات السياسية، يصلح بالتالي الفرد إذ أن صلاحه يتوقف على صلاح تلك المؤسسات فيصبح بذلك إنسان حقيقي لا إنسان مزيف.

ثانيا– الإرادة العامة وإسكات الأهواء:

إن الغاية من الإصلاح الأخلاقي للسياسة هو البحث عن شكل للوحدة أو الاجتماع من شأنه أن يحمي كل شخص وأمواله وجميع ممتلكاته والحفاظ على حريته ويكون في الوقت نفسه وسيلة لتخليص الإنسان من شهواته الشريرة، وينشأ هذا التنظيم عن تعاقد الناس واتفاقهم يقول روسو في ذلك: "**إيجاد شكل**

[1]– محمد علي عبد المعطي ومحمد علي محمد: السياسة بين النظرية والتطبيق، ص165.

[2]– جاك ماريتان: الفرد والدولة، تر: عبد الله أمين، منشورات دار مكتبة الحياة، دط، بيروت، دت، ص31.

[3]– علي عبود المحمداوي: الفلسفة السياسية المعاصرة من الشموليات إلى السرديات الصغرى، مراجعة شوقي الزين وإسماعيل مهنانة، دار الروافد الثقافية، ط1، دم، 2012، ص 34.

لشركة تجير، وتحمي، بجميع القوة المشتركة شخص كل مشترك وأمواله، وإطاعة كل واحد نفسه فقط وبقاؤه حرا كما في الماضي مع اتحاد بالمجموع"[1].

لكن وبما أن قوة وحرية كل فرد هي الوسائل الأولى في الحفاظ على حياته فكيف يرهنهما دون أن يلحق ضررا بنفسه ودون إهمال العناية بشخصه؟[2].

لقد اهتم روسو بحرية الإنسان إذ يرى بأنه حر بطبيعته، فجعل العقد الاجتماعي عبارة عن تنازل الأفراد عن حقوقهم تنازلا كليا، فيضع كل واحد شخصه وقدرته ومشاركته تحت الإشراف الأعلى للمشيئة العامة، فهو يعتبر الضامن للمساواة التامة بين الأفراد[3]، وتحقيق الحرية ذلك أن مهمة العقد الشرعي هي ضبط حرية الشخص وقوته بما يحقق له منفعة، فالعقد الاجتماعي الشرعي هو كمحصلة للإرادات الفردية الحرة ومن ثم فإنه قادر على إصلاح مفاسد الأهواء والتحكم فيها، وبهذا فإن الإرادة العامة ما هي إلا حاصل الإرادات الفردية وهي دائما مستقيمة لأنها تهدف إلى تحقيق مصلحة الكل المشتركة عوضا عن المصالح الشخصية يقول روسو: "**غالبا ما يكون هناك اختلاف شديد بين إرادة الجميع والإرادة العامة: فإن هذه لا تنشغل إلا بالمصلحة المشتركة، ولا تنشغل تلك إلا بالمصلحة الخاصة إذ هي ليست إلا مجموع إرادات جزئية. فما عليك إلا أن تزيح جانبا عن هذه الإرادات نفسها ما كان منها سالبا وما كان موجبا، فأبطل بعضه بعضا، فسترى أن ما سيحصل لك كمجموع فوارق إنما هو الإرادة العامة"**[4].

من هذا العقد الناتج عن تنازل الأفراد على كل ممتلكاتهم وعن حرياتهم الطبيعية تتكون هيئة وشخصية معنوية ذات إرادة هي الإرادة العامة، على أساس أن كل فرد يتنازل بإرادته عن حقوقه الطبيعية كلها للإرادة العامة، وهذا التنازل عن تلك الحقوق لا يكون لشخص معين ولكن للمجموع ككل أي أن التنازل للإرادة

[1]- جون جاك روسو: العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية، تر: عادل زعيتر، ص 43.

[2]- نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- عبد المجيد عمراني: محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي والسياسي، منشورات الحبر، ط1، الجزائر، 2008، ص104.

[4]- جون جاك روسو: في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، ترجمة وتقديم وتعليق: عبد العزيز لبيب، ص 110.

الجماعية، ذلك أنه "**إذ يهب كل واحد من الأشخاص شخصه للجميع فإنه لا يهب شخصه لأحد بعينه**"[1]، وروسو يرى بأن الفرد يفقد حريته وحقوقه الطبيعية ويحصل بالمقابل على الحرية والحقوق المدنية يقول في هذا الصدد: "**فالذي يخسره الإنسان بالعقد الاجتماعي هو حريته الطبيعية وحق مطلق في كل ما يحاول وما يمكن أن يحصّل، والذي يكسبه هو الحرية المدنية وتملك ما يجوز**"[2]، بمعنى أن الإنسان في نظر روسو وإن كان يتمتع في الحالة الطبيعية بحرية طبيعية، فإنه في الحالة المدنية يفقدها ليكتسب بذلك حرية مدنية، وفقدانه لتلك الحرية الطبيعية هو قصد تحقيق حرية أفضل منها تكون محدودة بالإرادة العامة وهي الحرية المدنية أي أنه "**يفقد الحرية الذاتية الأنانية لكي يحصل على الحرية المعنوية العاقلة**"[3].

يرى روسو أن الإنسان في الحالة الطبيعية كان خيرا يتمتع فيها بالحرية والمساواة، ونتيجة للتفاوت في الثروات والتقدم المدني بدأت تلك الحالة تسوء، فأدى ذلك إلى تنازل الأفراد عن حقوقهم لصالح الإرادة العامة لضمان أمنهم وحقوقهم واستقرارهم، ذلك أن "**الإرادة العامة تنمو دائما نحو تحقيق وصيانة الرفاهية للمجتمع، وهي مصدر القوانين، وحكمها دائما عادل وغير جائر**"[4]، فالإرادة العامة بهذا المعنى هي إرادة أفراد المجتمع جميعا من دون استثناء فهي تعبر عنهم وتمثلهم، وتقضي بذلك عن الأنانية الفردية عند كل شخص فيهم ذلك أن الغاية التي تصبوا إليها هي تحقيق الصالح العام والخير المشترك فهي دائما قويمة وعادلة.

إن الإرادة العامة باعتبارها عادلة وقويمة فقد خلقت مجتمع عادل وبذلك تكون قد استطاعت إخضاع الأهواء الإنسانية لقوانينها، غير أن ذلك لا يعني القضاء عليها نهائيا ذلك أن تطور الأهواء والرغبات أمر متأصل في الطبيعة الإنسانية ومع ذلك قد تصبح مصدرا للشقاء والشر غير أن روسو لا يدعو إلى احتقار

[1]- جون جاك روسو: في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، ترجمة و تقديم و تعليق: عبد العزيز لبيب، ص 94.

[2]- جون جاك روسو: العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية، تر: عادل زعيتر ،ص50.

[3]- نور الدين حاروش: تاريخ الفكر السياسي، شركة دار الأمة، ط3، الجزائر، 2012، ص303.

[4]- ياس خضير البياتي: النظرية الاجتماعية جذورها التاريخية وروادها، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط1، ليبيا، 2002، ص 58، 59.

أهواء الإنسان ولا إلى الزهد فيها لأنه لو قام بذلك لتجاهل طبيعة الإنسان وحقيقته، بل إن الأهواء والشهوات التي صنعها المجتمع في نظره هي التي أوجبت القوانين[1].

وهنا يبرز دور الإرادة العامة فهي تقوم بتفعيل نشاط الأهواء الإنسانية أما من يسخر تلك الأهواء بما فيه مصلحة شخصية له فهو بذلك يقوم باحتقارها وبالتالي يجرد المؤسسات الإنسانية من شرعيتها ذلك أن "**كل المؤسسات الإنسانية أسست على الأهواء وتحفظ من خلالها، أما الذي يهدمها فليس جديرا بتقويتها**"[2]، من خلال هذا القول يتضح بأن الإرادة العامة تحفظ وتأخذ قوتها من وجود الرغبات والأهواء البشرية غير أنه في مقابل ذلك تسعى تلك الإرادة العامة إلى الحد منها، ذلك أن الإرادة العامة هي أن نفعل دائما ضد تلك الأهواء الخاصة، فالإرادة العامة تعمل جاهدة على تحرير الإرادات الفردية من شهواتها قصد تحقيق المصلحة المشتركة للأفراد.

ومنه يتبين بأن الإرادة العامة هي دائما مستقيمة تهدف إلى الخير المشترك ولا يمكن أبدا أن تظل إذ بقى تحقيق المنفعة العامة غايتها لا المنفعة الخاصة.

وبهذا فإن الإرادة العامة هي روح الشعب في نظر روسو وبها تتحقق مصلحته العليا فهي إرادة كلية خيرة، وعليه فهو يؤكد على أن الضمير الفردي، والإرادة العامة كليهما يعبران عن صوت الواجب إذ أن بينهما علاقة تجمعهما، هي أن الضمير هو محبة الفرد لذاته، والإرادة العامة هي محبة الشعب لذاته، فهما استمرار لصوت العاطفة الإنسانية الطبيعية[3].

---

[1]- بليمان عبد القادر: الأسس العقلية للسياسة، ص 77.

[2] -Marcel Hénaff: Rousseau, le contrat, le silence des passions. p132.
"Tous les établissements humain sont fondés sur les passions humaines et se conservent par elles; ce qui combat et détruit les passions n'est donc propre à fortifier cet établissement".

[3]- بليمان عبد القادر: الأسس العقلية للسياسة، ص 84.

إن خيرية الإرادة العامة تتجسد من خلال قدرتها على مقاومة الأهواء الإنسانية وإسكاتها لتسمح للفهم والعقل في كل مواطن بأن يحكم طبقا للحرية الطبيعية أو المساواة، أي طبقا لعدل الضمير وبراءته الأولى[1]،وقد وجد روسو فكرة تلك الإرادة العامة التي هي : "**في كل فرد فعل محض للعقل الذي يجري استدلالاته في صمت الانفعالات**"[2]، ذلك أن الإرادة العامة بتحررها من ضغط الأهواء تتاح لها فرصة إصدار قوانين تكون معصومة من الخطأ وبواسطتها تتحدد حقوق وواجبات كل مواطن.

ومن هنا فإن الإرادة العامة تسعى نحو تحقيق هدف أنشأت من أجله وهو الصالح العام والقضاء بذلك عن الأنانية الفردية.

إن الأغلبية تبحث دائما عن المصلحة العامة لكنها لا تعرف كيفية تحقيقها، هنا تظهر فائدة المشرع الذي يتولى صياغة النصوص القانونية وعليه أن يتمتع بعقل سام، فائق الذكاء، يرى ويفهم جميع أهواء الناس على أن لا يكون له مثل تلك الأهواء ومن غير أن تحتاج سعادته إلينا، مما يعني أن طبيعته ليس لها ارتباط بطبيعتنا[3]. ذلك أن المشرع العبقري هو الذي ينير طريق الإرادة العامة فهي تأخذ قوتها من سكوت أهوائه وعواطفه وتحررها منها أي يجب أن ينصت إلى صوت العقل ومن ثم فإن القوانين العادلة هي تلك القوانين التي تكون صادرة عن مشرع متبصر.

من هنا يتضح أن الغاية التي تعمل من أجلها الإرادة العامة هي الخير المشترك، وذلك من خلال الحد من الأهواء الإنسانية وإسكاتها حتى يتحقق الصالح العام.

[1]- بليمان عبد القادر: الأسس العقلية للسياسة، ص81.

[2]- اميل برييه: تاريخ الفلسفة، ج5،ص 201.

[3]- جون جاك روسو: العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية، تر: عادل زعيتر، ص79.

المبحث الثاني: الإصلاح الاخلاقي للتربية والدين.

اهتم روسو بالمجال التربوي والديني لما له من أهمية في تكوين وتنشئة المجتمع، ولما كانت الغاية من تربية وتدين المواطن عند روسو تتجلى في جعله إنسانا تستفيد منه الجهورية، إنسان لا تسيطر عليه الأهواء والمصالح الشخصية، فكيف يمكن أن نهيكله على هذه المبادئ؟

أولا– الإصلاح الأخلاقي للتربية:

تجدر الإشارة دائما إلى أن مشروع روسو الإصلاحي هو مشروع سياسي تربوي ، بحيث أن إصلاح السياسة مرهون بإصلاح التربية فهناك علاقة وطيدة بين كل من السياسة والتربية وذلك راجع لطبيعة الإصلاح الأخلاقي أساسا الذي يتناول الجانبان معا، ومنه فإن السياسة والتربية يسعيان لتحقيق هدف واحد وهو إصلاح المجتمع وإعادة بنائه من جديد ومن ثم تجسيد المواطن الصالح داخل الدولة.

يرى جون جاك روسو أن وسيلة الإصلاح الحقيقية لحال الإنسان تكون بإيجاد نمط تربوي جديد وهذا ما احتوى عليه كتابه التربوي "إميل" وقد انطلق فيه من التسليم والتأكيد على مبدأين أساسيين هما:

– الإيمان ببراءة الطفل فروسو يعتقد بأن الطبيعة البشرية خيرة فهو ينكر أن الإنسان ابن الخطيئة.

– الإعلاء من شأن الطبيعة فالإنسان يتخذ من الطبيعة معلما له فيتعلم منها ما يحتاج إليه، وعليه فإن التربية هي السير وفق قوانينها.

يعتقد روسو أن الطبيعة خيرة وأن الشر والفساد من صنع البشر، وعليه فهو يرى أن المجتمع هو المسؤول عن الفساد الأخلاقي وانحراف التربية، ويقوم مذهب روسو على "**كون الإنسان صالحا بطبيعته محبا للعدل والنظام، فأفسده المجتمع وجعله بائسا**"[1]، بمعنى أن أي فساد يظهر على الناس هو من طرف المجتمع وتدخله في مبادئ الطبيعة الخيرة، فالتربية التقليدية التي كانت تسود عصر روسو لم تعمل على حماية

[1]– جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: عادل زعيتر، ص08.

الإنسان من الوقوع في الأخطاء ومختلف الرذائل والشهوات، ومنه فإن التربية الطبيعية هي تربية خيرة بالأساس فهي تنطلق من فكرة العودة إلى الطبيعة فهي تحمل صفات النقاء والسلامة ولا يمكن أن تقع في الخطأ في نظر روسو والأخطاء التي قد يقع فيها الإنسان تكون نتيجة التربية الخاطئة يقول روسو: "**إن الطبيعة لا تقترف الأخطاء وجميع الرذائل التي تنسب إلى سوء الفطرة ليست إلا نتيجة لبعض مساوئ التربية**"[1].

انتقد روسو التربية التقليدية السائدة بشدة وعنف لاعتمادها على أسلوب التلقين والإملاء، فهو يرفض تلقين الطفل مفردات لغوية كثيرة وأن يردد ألفاظا لا يفهمها، إذ يرى روسو أنه من الخطأ أن نعلمه نطق الكلمات أكثر من قدرته على التفكير، كما أن أسلوب التلقين والإملاء يمنع الطفل من التفكير ويقوم بالحط من مستوى قدراته وابداعاته، وهنا نجد روسو يقدم نمطا جديدا من التربية يختلف عن التربية التقليدية ويقوم بتصحيح الأخطاء التي اقترفتها هذه الأخيرة، وهذا النمط هو ما يصطلح عليه روسو بالتربية الطبيعية التي اهتمت بالدرجة الأولى بطبيعة الطفل التي تؤمن بأنها خيرة، وقد أراد روسو من خلال هذا الأسلوب التربوي أن "**يحفظ خصال البراءة والطهارة وفضائل حالة الطبيعة**"[2]، في الإنسان وهو ينادي بالرجوع إلى الطبيعة في التربية، وذلك بأن يترك الطفل يربي نفسه بنفسه، فينشأ حرا جديرا بأن يكون عضوا في دولة حرة، إذ ما من وسيلة لتربية الطفل لأجل الحرية إلا تربيته بالحرية وهذا يعني أن التربية في رأي روسو يجب أن تكون سلبية ما أمكن، فتقتصر على معاونة الطفل في تربيته نفسه بنفسه، وتجنب كل ما يضيق عليه ويقيده.[3]

التربية الطبيعية للطفل تتحكم فيها ثلاث عوامل هي: الطبيعة، الأشياء، الإنسان يقول روسو:"**التربية تأتينا إما من الطبيعة أو من الناس، أو من الأشياء فنمو وظائفنا وجوارحنا الداخلي ذلكم هو تربية**

[1]- رومان رولان: آراء روسو الحية، ص 149.

[2]- محمد علي محمد، علي عبد المعطي محمد: السياسة بين النظرية والتطبيق، ص 165.

[3]- جميل الحاج: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ص 268.

الطبيعة. وما تتعلم من الإفادة من ذلك النمو، ذلكم هو تربية الناس. وما نكتسبه بخبرتنا عن الأشياء التي تتأثر بها، فذلكم هو تربية الأشياء"[1]، بمعنى أن التربية الصحيحة تكون باتحاد كل من الطبيعة والأشياء والناس لا تنافرها ذلك أن نجاح التربية مرهون بتضافر هذه الضروب كلها وتكامل أدوارها.

إن التربية الطبيعية تهتم بمراحل نمو الطفل، فلا تقدم مرحلة على مرحلة أخرى، فلكل مرحلة مطالبها التي ينبغي على أساليب التربية أن تتماشى معها، وبرنامج التربية يشتمل على أربع مراحل هي: حياة الطبيعة، الحياة العقلية، الحياة الخلقية، الحياة الدينية.

التربية الطبيعية هي ترك الطفل يعيش بحرية حيث أن روسو انتقد التربية التقليدية، وقد رفض عادة اللفافة والأربطة التي تقيد الطفل وتمنعه من الحركة، وقد تعجب روسو من مسألة تقييد الطفل منذ الولادة في لفافه ثم تقييده بعد مماته بكفن فيولد الإنسان ويعيش ويموت وهو مقيد ،ولهذا كان روسو يريد أن يترك الطفل حرا في حركاته لأن ذلك يساعده على تربية جسمه وتقويته، وقد تحدث روسو عن الرعاية التي يجب أن يحظى بها الطفل مكافحا بذلك العادات السائدة في عصره يقول روسو: "**حكمتنا في مجموعها مزاعم حقيرة. وكل مواضعاتنا ضروب من الخنوع أو الانحصار أو الضيق. فالإنسان المتمدين يولد ويعيش ويموت في رق العبودية. حين يوثقونه بقماط، وحين يموت يسمرون عليه تابوتا. ومادام على وجه الدنيا فهو مكبل بشتى النظم"[2]**، بمعنى أن روسو يرفض عادة اللفائف والقماط فالطفل يجب أن لا تفرض عليه القيود منذ ولادته فهي تشل حركاته وتحد من حريته.

التربية الحسية فيها يترك للطفل الحرية في اللعب والاستكشاف، فيترك فيها الطفل ليعيش في الطبيعة فيتعلم منها عن طريق الحواس والملاحظات الشخصية يقول روسو: "**لا ينبغي أن نلقن التلميذ دروسا لفظية**

[1]- جون جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص 26.

[2]- نفسه، ص34.

فالتجربة وحدها هي التي يجب أن تتولى تعليمه وتأديبه. فالتربية الأولى ينبغي إذا أن تكون سلبية خالصة"[1]، فروسو يرى بأن التربية الصحيحة تكون بالممارسة والتجربة أكثر مما هي بالتلقين وهنا تشتد التربية السلبية، فللطفل الحرية في أن يختار ما يتفق مع ميوله ورغباته، والمربي الحقيقي هو الطبيعة حيث تتيح للطفل أن يتعلم مباشرة من الخبرة، فيحتك بالطبيعة وعناصرها ويتفاعل مع الأشياء والمواقف والأحداث، ومن اللعب واللهو سيتعلم الطفل أن النار تحرق، والتعرض للبرد يصيب الفرد بمرض، وهكذا ينمي الطفل ذاته ويعتني بكل ما يهمه ويربيه، دون تدخل الكبار، بمعنى أن دور الآباء والمعلمين هو تهيئة ظروف التعلم دون أن يظهروا في الصورة[2]، يقول روسو: "**ضعوا كل الدروس الموجهة للأطفال في الحركة بدل وضعها في الخطاب إنهم لا يأخذون شيئا من الكتب أكثر مما تعلمهم إياه التجربة"[3]**.

وهذا يعني أنه يجب في نظر روسو ترك الأطفال يتعلمون من الطبيعة ذلك أن الطفل له قدرات تمكنه من أن يجرب ويختبر بنفسه دون حاجة للكتب، فالطفل عن طريق الملاحظة والتجربة يصل إلى اكتشاف ما هو ضروري ومفيد له.

ومع اقتناع روسو بأن التجربة هي الوسيلة الملائمة للتربية إلا أنه لم ينكر دور الكتب في هذه المرحلة من نمو الطفل، فيتعلم أشياء من الفلك والجغرافيا والطبيعة ولا يتعلمها من الكتب بل من ملاحظة الطبيعة، فلا يلقن الطفل دروسا شفوية، ولا يسمح له بمطالعة الكتب فهي لا تعلمه الألفاظ، غير أن روسو ينصح بكتاب واحد وهو "قصة روبنسون كروزو" حيث يتعلم كيف يمكن الاستغناء عن الكتب ثم يعلم حرفة يدوية[4].

---

[1] – جون جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد ،ص 98.

[2] – أحمد علي الحاج محمد:فلسفة التربية، دار المناهج، ط1، الأردن، 2002، ص 127.

[3] - J-J-*Rousseau*: Emile ou l'éducation, p77.
"mettez toutes les leçon des jeunes gens en action plutôt qu'en discours; qu'ils n'apprennent rien dans les livres de ce que l'expérience peut leur enseigner".

[4] – ول وايرل ديورانت: قصة الحضارة– روسو والثورة،ص 299.

تمثل هذه المرحلة مرحلة التربية العقلية قصد تنمية القدرات العقلية أي أنها تمثل النشأة العقلية لدى الإنسان وذلك عن طريق الاستطلاع والقدرة على المناقشة والتحليل.

يرى روسو أن الطفل يحتاج إلى التربية الخلقية بحيث يجب التركيز والاهتمام بتنمية العواطف والأحاسيس والمشاعر وإيقاظ الضمير، ويعطي روسو أهمية كبيرة للضمير إذ يراه مبدأ العدالة، ففي هذه المرحلة يعلم الطفل الأخلاق فتنمى فيه الشفقة وعرفان الجميل ومحبة الإنسانية وضبط أهواء النفس، ويعلم أن له نفسا وأن الله موجود، وفي الثانية والعشرين يمهد للزواج بالخطوبة، ثم بأسفار يفيد منها معرفة المجتمع وعاداته ورذائله ومخاطره، وفي المرحلة الأخيرة يتخذ دينا له يعرضه عليه قسيس وعقائد هذا الدين هي عقائد طبيعية بحت لا تستند إلى وحي حيث أن في الوحي افتئاتا على حقوق الشخصية[1].

غير أنه ما يعاب على روسو الذي تأثر بأفلاطون Platon (427-347ق.م) وألف كتابا في التربية، وقد كان شديد الحديث عن التربية والأخلاق والشفقة فقد عهد بأولاده إلى أحد الملاجئ، فلم يشرف على تربيتهم ولم يعتن بهم[2].

ومع ذلك فإن التربية عند روسو تتحدد بكونها إعلاء من شأن الطبيعة البشرية والإيمان بخيريتها، وهي تهدف إلى تقويم السلوك الإنساني والرقي به، والقضاء على الأشياء التي تعترض نمو الطفل، فحرص على أن تكون التربية عملية سلبية تقوم على الخبرة، ومنه فإن التربية تقوم بإصلاح ما يفسده المجتمع في الإنسان.

ثانيا– الإصلاح الأخلاقي للدين:

لقد ارتبط الدين بكل من المنظومة التربوية والسياسية في آن معا فنوعية التربية والسياسة السائدة تنعكس على طبيعة الدين، ومنه فإن عملية الإصلاح الأخلاقي تتناول التربية والسياسة وكذا الدين، ولما كانت الغاية

[1]– يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 215.

[2]– فضل الله محمد إسماعيل: الأصول اليونانية للفكر السياسي الغربي الحديث، بستان المعرفة لطبع ونشر وتوزيع الكتب، ط1، الإسكندرية، 2001، ص 45.

من الدين هو إصلاح الفساد والانحلال الخلقي، فإن المؤسسات السياسية هي لا شيء بدون العادات الأخلاقية، ويتم ذلك عن طريق التربية والدين قصد تقويم سلوك الفرد وهدايته لتجسيد المواطن الصالح داخل الدولة.

لقد أشاد روسو على الديانة المدنية وطلب أن يتمرس بها الطفل عندما تتم تربيته الطبيعية والعقلية والخلقية، فيجب أن يصغي إلى صوت هذه الديانة وهي ديانة طبيعية لا تستند إلى الوحي في نظره ، وقد وجد روسو أن الوضع الطبيعي أن ينشأ الطفل على دين أبيه وأجداده فهم يثبتون له دائما أن هذا الدين هو الدين الوحيد الحق وأن كل الأديان الأخرى خرافات وسخافات يقول روسو: "**عد إلى وطنك وإلى ديانة أجدادك التزم بها في قرارة قلبك، ولا تفارقها أبدا أراها في غاية البساطة وفي غاية القداسة، بين كل شرائع الأرض إنها الأرقى أخلاقا والأقرب إلى العقل**"[1]، فهو يرى أن خير سبيل ليهتدي الطفل أن يتبع الدين الذي ورثه عن آبائه فهو في نظره بسيط ومقدس وهو دين الفضيلة.

يعرض روسو على تلميذه مبادئ الدين الطبيعي على لسان الراهب السافوي[*] الذي يرى بأنه يحسن خدمة شعبه بكتمان شكوكه، وممارسة العطف على الجميع، وأداء طقوس الكنيسة الرومانية كلها بأمانة، فالفضيلة ضرورية للسعادة والإيمان بالله وبحرية الإرادة، وبالجنة والنار، ضروري للفضيلة فالأديان جعلت الناس أكثر فضيلة[2]. وقد أكد روسو اعتقاده في ثلاثة: الله، العناية الالهية، خلود الروح وهكذا يضع أسس الدين الطبيعي.

[1]– جون روسو: دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل سافوا، ص 127.

[*] – الراهب السافوي وهو شخصية ليست خيالية، لأن روسو عرف راهبين من سافوي هما الأب جيم والأب جاتييه، فخرج شخصيتهما وأخرج منها شخصية الراهب السافوي. (انظر:نجيب المستكاوى: جون جاك روسو حياته– مؤلفاته –غرامياته، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1989 ص339).

[2]– ول وايرل ديورانت: قصة الحضارة– روسو والثورة، ص 301.

يسلم الكاهن بالاستدلال العقلي الخالص، فأنا لا أدرك الله بحسي، ولكن استدل عقلا على أنه كما أن في أفعالي الإرادية عقلا هو السبب المدرك للحركة وهو السبب في تحركات الكون، فالله لا يمكن معرفته ولكني أشعر أنه موجود وفي كل مكان، فعجائب الكون تؤكد على أن هناك إله ذكي يقف وراءها ومن ثم فهو لا يسمح بهزيمة الحق فهو اله خير يؤكد انتصار الخير، لذا يجب أن نؤمن بحياة آخرة وبجنة تجزى فيها الفضيلة ذلك أنه لو انعدم الإيمان بالله وبالآخرة لتعرضت الفضيلة للخطر وتجردت الحياة من معناها[1].

إن هناك إرادة تحرك الكون وتبعث الحياة في الطبيعة، فالموجودات جميعا تتحرك بدافع خارجي، عنها وهذا ما يبرهن على وجود عقل محرك يقول روسو :"**إن إحساساتي تحدث في داخلي. بما أنها تجعلني أحس بوجودي ولكن علة هذه الإحساسات غريبة عني، مادامت هذه الإحساسات تجري مستقلة عن إرادتي وأهوائي**"[2]، ذلك أن الله هو الإرادة القوية والحكيمة التي تقف وراء حركة الكون، فبالحركة والإرادة يصل روسو إلى التأكيد على هناك إله يتصف بالخيرية فهو يشرف على انتظام الكون وتناسقه، ونجده يقول في ذلك :"**إن الثابت عندي على كل حال أن الكون في مجموعه شيء واحد بدليل تناسق عناصره في الفعل والحركة، وهذا يدل على أن عقلا واحدا يدبر الكون كله. وهذا الكائن الذي يريد ويقدر ويفعل بذاته محرك الكون ومدبر النظام هو الذي أدعوه الله وأضيف إلى اسمه معاني التدبير والقدرة والإرادة التي تجمعت عندي من ملاحظة الكون، ومعنى الخير الذي هو لاحق ضروري لتلك المعاني**"[3].

فروسو يؤمن بأن هناك عقلا منظما لكل حركة تجري في الكون، ذلك أن الكون تديره إرادة واحدة عاقلة وقادرة، كل شيء فيه مرتب ومنظم وهذا دليل على وجود عناية إلهية تنظمه، وتسعى لأن تحميه وتحافظ عليه بخيرتيها وعدالتها.

[1]- ول وايرل ديورانت: قصة الحضارة- روسو والثورة، ص 302.
[2]- جون جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المعهد إلى الرشد، ص 201.
[3]- نفسه، ص 207.

يرى روسو بأن الإنسان له الحرية في التقدير والاختبار وما دام أنه حرفي أفعاله: "**فلا بد إذن أن فيه جوهرا غير مادي**"[1]، هو الذي يحركه، وبهذا فإن مبادئ عقيدته ثلاثة وهي: أن هناك إرادة قوية تحرك الكون وأن هذا الكون يسير في انتظام وانسجام وهذا دليل على أن هناك عقلا ينظمه، وأن الإنسان حر في أفعاله وأن فيه جوهر غير مادي، لذا فهو يرى بوجوب الإيمان بالله وقدرته وطيبته وعدالته.

ويطلب روسو أن تكون العقائد الدينية جلية نيرة وأن تقدم لنا دينا وأخلاق ومبادئ تتفق مع الصفات التي بها نتصور ماهية الله، كما أن "**الدين لا يعفي في أي حال من واجبات الأخلاق، أن هذه هي أهم ما في الأمر كله أن العبادة بالقلب هي أول تلك الواجبات،و أن لا فضيلة حقة أبدا دون إيمان**"[2]، فالإيمان هو الذي ينير طريق الفضيلة.

وبعدما اقتنع الكاهن بأن هناك إلاها، بدأ ينظر في قواعد السلوك التي يجد بأنها مطبوعة في أعماق قلبه وليست مستنبطة من مبادئ فلسفة عالية مؤكدا بذلك أن الضمير دليل لا يخطئ، بواسطته نستطيع التمييز بين الخير والشر ومنه فإن مشاعرنا الطبيعية تقودنا إلى خدمة المصلحة المشتركة، فالضمير هو المرشد الحق للإنسان، وهو للروح بمثابة الغريزة للجسد، فالذي يتبعه يطيع الطبيعة ولا يخشى أبدا أن يظل[3]، لذا يجب أن نطيع ضميرنا فهو جوهر معصوم من الخطأ ودليل أكيد لبناء حياة فاضلة يقول روسو: "**لنطع الطبيعة وسنعرف كم حكمها لين متسامح لنصائحها وسنرى كم حلو الرضى على النفس والإقرار أنها على صواب**"[4]. فعلينا أن نهتدي بالطبيعة وأن نسير وفق أحكامها وقوانينها فلا يمكن أن تظل وهي دائما على صواب.

---

[1]- جون جاك روسو :تربية الطفل من المهد الى الرشد، ص 211.

[2]- جون جاك روسو: دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا، ص 128.

[3]- نجيب المستكاوى: جون جاك روسو حياته- مؤلفاته- غرامياته، ص 354.

[4]- جون جاك روسو: دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا، ص 72.

والدين الطبيعي، لا حاجة به إلى الوحي، فإذا كان الناس أنصتوا إلى ما يناجي به الله القلب لكان هنالك فقط دين واحد في العالم، و للدين الطبيعي الفضل في أنه ينكشف مباشرة لكل فرد[1].

يرى روسو بأن هذه العقيدة هي عقيدة فطرية بسيطة سمحة منافية لكل تعصب، تسعى لتدعيم القيم والفضائل الأخلاقية، وقد كان يقول بأن دينه هو دين السماحة الطبيعية،ونجد بأن روسو قد ربط التدين بالمنظومة التربوية، لكن دون إهمال ما ورد في العقد الاجتماعي، فقد رسم روسو المبادئ البسيطة للدين في علاقتها بالمجال السياسي ذلك أن الدولة حريصة على أن يكون لكل مواطن دين يقول روسو :"**مما يهم الدولة أن يكون لكل مواطن دين يحبب إليه واجباته، غير أن عقائد هذا الدين لا تهم الدولة ولا أعضاءها إلا بالمقدار الذي تناط معه هذه العقائد بالأخلاق والواجبات التي يلزم من يعلمها باتباعها نحو الآخرين**".[2]

و لهذا فإن روسو ينادي بالدين المدني فيجب على الدولة أن تحدد قضاياه لا كعاقد الدين بالضبط وإنما كعواطف اجتماعية لا يستطيع المرء بدونها أن يكون مواطنا صالحا، ومع أن الدولة لا تستطيع أن تجبر أحدا على الايمان بهذه المعتقدات، لكنها تستطيع أن تقصي أي إنسان لا يؤمن بهذه التعاليم، وعقائد هذه الديانة بسيطة قليلة العدد محدودة ودقيقة فهي تقتصر على الإيمان بوجود إله قادر، عليم، بصير، رحيم والإيمان بوجود حياة أخرى، سعادة الأبرار وعقاب الأشرار والإيمان بقداسة العقد الاجتماعي والقوانين التسامح وعدم التعصب.[3]

ومنه فإن روسو يشيد بتدين المواطن فهو يرى في الدين الوسيلة الناجعة لتحقيق تلك الوحدة الاجتماعية وتكريس الفضيلة، فما من دولة إلا وكان الدين أساسها فله دور إصلاحي وهو أساسي في حياة

---

[1]– بتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية: الكتاب الثالث، ص 299.

[2]–جون جاك روسو : العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسة، تر: عادل زعيتر، ص 210.

[3]–نفسه، ص 211.

الدول، وقد آمن روسو بالدين الطبيعي حتى أنه طلب أن يلقن لتلميذه عندما تتم مراحل تربيته الطبيعية والعقلية والخلقية فهو دين لا يدركه الفساد أو التعصب، وقد حصر عقائده في أبسط التعاليم وهي عقائد فطرية وسمحة.

المبحث الثالث: نظرية الأخلاق عند روسو.

الإنسان حيوان أخلاقي ومنه فالأخلاق خاصية لسلوك الإنسان وحده دون غيره، وهو الكائن الوحيد الحامل لجملة القيم والمبادئ الأخلاقية، فلا يمكن أن يتحدد وجوده إلا من خلال علاقته بالمنظومة القيمية.

أولا : مبادئ النظرية الأخلاقية:

لقد شكل موضوع البحث في مبادئ عامة تنظم حياتنا الأخلاقية وتوجهها إحدى الموضوعات الهامة التي تناولتها المسألة الأخلاقية برمتها دون الأخذ في الاعتبار لتغير الزمان والمكان، ولقد اهتم روسو بالبحث عن مبادئ عامة تحكم سلوكات البشر وتنظم سيرورة حياتهم، فما الجوهر الذي أقام عليه روسو تلك المبادئ الأخلاقية؟

بنى روسو نظريته الأخلاقية من منطلق أن الإنسان خير بطبعه، وهذه النظرية تقول بأن الضمير الأخلاقي أصله الطبيعة الإنسانية وما فطرت عليه بمعنى أن الإنسان يولد وهو مزود بهذه الملكة الطبيعية، فالحس الأخلاقي أصيل في الطبيعة الإنسانية، وقد رأى روسو بأن مصدر قيام تلك المبادئ يكمن في الطبيعة أي في تلك الغريزة الربانية، وهو دليل أكيد ومعصوم مرشد لكل ما هو خير، لذا علينا أن نستشيره في جميع الظروف ونتبع الإرشادات التي يسديها إلينا، فهو يحتوي على القاعدة الأساسية التي يجب أن توجه أعمالنا في كل مكان وزمان، وعليه فإن الضمير الأخلاقي في الإنسان هو الذي يميزه عن الحيوان، وهو في نظر روسو مبدأ فطري مغروس في أعماق نفوسنا يقول روسو: "**يوجد إذن في سر النفوس مبدأ يولد مع الإنسان، على ضوئه يحكم الفرد ولو صدم ذلك ميوله الشخصية، على تصرفاته وتصرفات غيره فينعتها بالصالحة أو بالفاسدة وهذا المبدأ هو الذي أسميه أنا الضمير**"[1]. فالضمير موجود في قلوبنا و بواسطته يحكم الانسان على أفعاله و سلوكاته إن كانت خيرة أو شريرة.

[1]- جون جاك روسو: دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا، ص74.

سعى روسو إلى إقامة مذهبه الأخلاقي بالاستناد إلى معطيات العاطفة فهي المرشد الأمين الكافي لتحقيق السعادة، ورأى بأن الطبيعة وحدها بما تنطوي عليه من مشاعر وأحاسيس فطرية خيرة تتولى إمكانية قيام مبادئ أخلاقية توجه سلوك البشر بغض النظر عن تغير الزمان والمكان، وقد كان يهدف إلى توحيد القيم والمبادئ الأخلاقية، فالمبدأ الأخلاقي هو مبدأ مطلق يقول روسو: "**أن هناك معاني واحدة للعدل والأمانة .إن مبادئ الأخلاق واحدة في كل مكان**"[1]، وذلك يعني أن المعاني الفاضلة والمبادئ الأخلاقية هي عينها في كل زمان ومكان فقيم العدل والشرف والصدق التي نراها في أمة ما هي نفسها في أمة أخرى.

يؤكد روسو على أهمية الضمير وحجم فعاليته في الشأن الأخلاقي، وهو يدعو إلى ضرورة قيام حياة أخلاقية مبنية على الشعور والإحساس بالقيم والمبادئ الفاضلة، وقد دعى الإنسان إلى أن يعود إلى أحضان الطبيعة فهي المرشد والهادي إلى كل ما هو خير يقول روسو: "**ينبغي أن نميز بين أفكارنا المكتسبة ومشاعرنا الطبيعية، لأننا نحس بالضرورة قبل أن نعرف ولا نتعلم إطلاقا أن نريد خيرنا ونفر من شرنا، بل نحن نتلقى تلك الإرادة من الطبيعة وكذلك نتلقى منها حب الخير وكراهية السوء، فذلك طبيعي فينا كحبنا لأنفسنا**"[2]، فروسو يرى بأن الاهتداء بالطبيعة في أفعالها، ومشاعرها يؤدي بالإنسان إلى العيش في سعادة وهناء، يفيض بالمعاني الخيرة التي طبعته عليها لذا وجب عليه السير وفق قوانينها دائما يقول روسو في هذا :"**إننا نعمل في توافق مع الطبيعة**"[3]، فكل ما يأتي به صوت الطبيعة هو مصدر للخير والسعادة ،فالطبيعة في نظر روسو لا تكذب أبدا وكل ما يأتي منها يكون محل ثقة وصادق لذا وجب على الإنسان أن يصغي إلى أوامرها ونواهيها.

[1]- جون جاك روسو: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ص 213.
[2]- نفسه، ص 214.
[3]- نفسه، ص 219.

يرى روسو بأن مصدر الإلزام الخلقي يكمن في تلك العواطف والمشاعر التي تأتينا من الغريزة الربانية التي تولد مع ولادة الإنسان ويقصد بذلك الضمير الذي بواسطته يستطيع الإنسان إدراك مفهومي الخير والشر حدسيا، فعلى كل إنسان أن يسأل ضميره فيملي عليه حدسه المباشر السلوك الذي يجب أن يسلكه، فكل ما يشعر به الإنسان أنه الخير كان خيرا، وكل ما يشعر به أنه الشر كان بذلك شرا، فعلى الإنسان أن يتبع هذا المبدأ حتى يكون كائنا أخلاقيا وفاضلا.

الضمير الأخلاقي جوهر لا يتبدل وغير خاضع للظروف والأهواء لذلك وجب أن تلمس قواعد السلوك الأخلاقي من أعماقه فهو الذي يدلنا على ما ينبغي فعله في كل الأحوال، وهو صوت الطبيعة ومبدأ منقوش على القلوب لذا علينا استشارة ضميرنا في مختلف الظروف لأن معطياته هي جوهر القيم الفاضلة.

يؤكد روسو على ضرورة حضور فعل العاطفة في حياتنا الأخلاقية قصد إرساء دعائمها وهنا نجد كانط يؤكد على أن أحكامنا الخلقية تقوم على العاطفة، وقد عرف العاطفة الخلقية بأنها "**الشعور بجمال وكرامة الطبيعة الإنسانية**"[1].

يرى روسو أن قوانين الأخلاق عامة لا تتأثر بحدود الزمان والمكان، إذ أن الأخلاق تبحث في قوانين السلوك الإنساني، ومنه فإن الإنسان يستخلص جملة المبادئ والقواعد من مبدأ داخلي وليس خارجي فهو صوت الطبيعة ومبدأ مغروس في أعماق القلوب يقول روسو:"**لن أستنبط تلك الضوابط من فلسفة متعالية، بل سأكتشفها في سر قلبي كما كتبتها الطبيعة بحروف راسخة**"[2]، فأفعال الضمير وأحاسيسه هي في الحقيقة مجرد استعداد داخلي لفعل الخير والنفور من الشر، كما أننا "**لا نقصد الخير ونعرض عن الشر**

[1]- نقلا عن: محمد بدوي السيد: الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، دط، الإسكندرية، 2000، ص92.

[2]- جون جاك روسو: دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا، ص 68.

بالتعلم بل بعزيمة أودعتها فينا الطبيعة، فإن الإقبال على الطيب والنفور من الخبيث شعوران طبيعيان فينا بقدر ما هو طبيعي حب الذات"[1].

ومنه فالحقيقة الأخلاقية يجب أن تكون صادرة عن مبدأ ثابت ودائم وهذا المبدأ يتعلق أساسا بالعاطفة، فيجب أن يظل الضمير حاضرا في حياتنا الأخلاقية إذ بواسطته يقبل الإنسان على فعل الخير وينفر من فعل الشر، فهو المرشد الحق والأمين للإنسان.

وقد ذكر روسو العديد من المواقف أراد من خلالها أن يبرز دور الضمير وحيويته ودوام حضوره في حياتنا الأخلاقية فهو يعد مرجعا أخلاقيا في الحكم على أفعالنا وسلوكاتنا ومن بين هذه الحوادث والمواقف:

-حادثة سرقته للشال واتهامه للخادمة ماريوت التي كانت تخدم وإياه في المنزل ذاته، والتي طردت من عملها إثر ذلك، وموقفه الجبان عندما هرب وترك أعز أصدقائه وقد سقط صريعا مغميا عليه دون أن يسعفه أو يقف إلى جانبه ليتجاوز أزمته، الموقفان اللذان ظلا يؤرقانه ويثيران في نفسه الشعور بسلبية موقفه.

-حادثة المحلف البريطاني التي تكشف عن يقظة عالية للضمير هنا، وقد أصر هذا المحلف على تبرئة المتهم الماثل أمام هيئة المحكمة من جرم نسب إليه، وعمل ما بوسعه لتحصيل البراءة له، لأنه يعرف دون غيره من أعضاء المحكمة أن المتهم برئ وأن القاضي هو من ارتكب الجرم وليس الشخص الماثل أما المحكمة[2].

وهكذا فإن حضور الضمير في حياتنا الأخلاقية أمر ضروري فهو الحكم الفصل في التمييز بين الخير والشر، لهذا وجب علينا استشارة ضميرنا في مختلف الظروف، فهو دليل أكيد وجوهر معصوم من الوقوع في الخطأ، فمعطياته هي جوهر القيم والمبادئ الأخلاقية.

[1]- جون جاك روسو: دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا، ص 76.

[2]- نقلا عن : منيرة محمد: مبادئ الإلزام الخلقي، مجلة جامعة دمشق، المجلد28، العدد 3+4، 2012، ص 399.

ثانيا: نقد وتقييم:

قدم روسو نظرية سياسية متكاملة، وقد بنيت على ثلاث مرتكزات أساسية هي: المرحلة الطبيعية مرحلة البراءة و الخير والاستقرار وفيها يخضع الإنسان لغرائزه الطبيعية، والمرحلة السياسية وهي مرحلة الانحطاط الناتجة عن صراع الإنسان مع أهوائه وميولاته الذاتية، ثم العقد الاجتماعي المتولد عن اتفاق البشر والذي يؤدي بهم إلى النهوض والاستقرار لأنه تعبير عن الإرادة العامة التي تهدف لتحقيق الصالح العام.

وقد انطلق روسو في فلسفته الاجتماعية من أطروحة الحالة الطبيعية السابقة على ظهور القوانين والدولة، وهو يشك في أن تكون الحالة الطبيعية قد وجدت فعلا، وأن وصفها قد لا يعبر عن حقيقة تاريخية بل يشكل فرضية ضرورية لتوضيح طبيعة الأمور ولتقييم الوضع الذي نحن فيه اليوم تقييما صائبا، فعدَّ الإنسان محور تأملاته وكانت غايته من ذلك معرفة أصل الشر ومن ثم محاولة العودة به إلى ما كان عليه قبل تلك الحالة الشريرة.

إن الاجتماع شر ومصدر جميع الشرور، وبما أتاحه من تقدم علمي، فقد ساهم في إفساد الطبيعة البشرية، فالرذيلة والأنانية لا وجود لها إلا في الحالة الاجتماعية، وقد طرح روسو بديلا تربويا- سياسيا لجميع الأخلاق الفاسدة التي تسببت فيها المدينة فصلاح المرء لا يكون إلا بتحرره من قيود المدينة، ولهذا فإن روسو يدعونا إلى العودة للطبيعة فهي أول منطلق لعملية الإصلاح سواء كان إصلاحا سياسيا أو اجتماعيا أو أخلاقيا والسير وفق قوانينها.

لقد كان لروسو تأثير كبير على الثورة الفرنسية، ويعتبر اليوم من أهم فلاسفة الفكر السياسي الفرنسي، وقد كان كانط، وهيجل[*] Friedrich Hegel يعتبرانه أستاذهما.

[*] - هيجل Friedrich Hegel (1770-1831) من أهم فلاسفة المثالية الألمانية من بين مؤلفاته: ظاهرية الفكر، علم المنطق، فلسفة القانون، موسوعة العلوم الفلسفية.

يهدف روسو في فكره السياسي إلى إعادة الإنسان إلى فرضية حالة الطبيعة السعيدة المطمئنة وقد اشترك روسو وبريسيو في أن العودة إلى الحالة الطبيعية أمر مستحيل، فالحلم بهذه العودة وهم وتخريف، وما يصلح للإنسان في الحالة الطبيعية لا يصلح للإنسان الاجتماعي[1].فقد أكد روسو على وجوب العودة إلى الطبيعة، ولم تكن غايته العودة إلى الحياة البدائية ذلك أن الانسان هو جزء من المجتمع ،وقوله بالعودة للطبيعة معناه العيش حياة طبيعية مستقرة وفاضلة في ايطار متحد اجتماعي.

إذا كانت الطبيعة قد خلقت الناس متساوين فإن العقد الاجتماعي يعيد الإنسان الذي أفسدته العلوم والفنون إلى حالة الصفر لكي يكون الجميع سواسية وأحرارا ومنه فإن السيادة تعود برمتها إلى إرادة الشعب العامة، كما أن القانون لا يصنعه فرد أو هيئة وإنما هو صادر عن إرادة الشعب العامة ، ومن ثم فإن روسو قد قدم نسق سياسي متكامل ومترابط إلا أننا نأخذ عليه أنه لم يقدم في ميدان السياسة إلا مجرد افتراضات أو اقتراحات كما يقول دانتج ومع ذلك "**كانت القوة الدافعة لافتراضاته واقتراحاته دامغة وعنيفة، وظلت باقية كنظريات، خالدة في الأدب والتاريخ... فلقد تحولت اقتراحات روسو في كل منها إلى نظريات رائعة كما تغلغلت روحه وعقائده في الأنساق النظرية السياسية والجوانب التطبيقية للسياسة معا**"[2].

إن روسو قد قدم الكثير في المجال التربوي والسياسي على السواء، إلا أن ما قدمه وإن لقي صدى كبيرا اليوم إلا أنه واجه الكثير من الرفض والانتقاد، فقد أصبحت المواقف تتراوح منذ القرن 18 بين مؤيد ومعارض لأفكاره ولهذا يتوجب الوقوف على أهم الانتقادات والاعتراضات التي وجهت لروسو. فما هي أهم الاعتراضات التي وجهت إليه؟

تتركز أهم الانتقادات والمؤاخذات في أن قول روسو بأن الفنون كانت دائم مفسدة للحضارة الأمر الذي جعله عرضة للهجوم والنقد، ولقد اعترف فيما بعد أنه تلقى ثمان وستين رسالة تنتقد ما ذهب إليه، كما

[1]- ف فولفين: فلسفة الأنوار، ص258.

[2]- محمد علي محمد، علي عبد المعطي محمد: السياسة بين النظرية والتطبيق، ص 180،181.

وأنه اعترف أيضا بأن ثمة نواقص وأخطاء في بحثه، ولكننا عندما نتأمل فيما كتبه روسو، نشعر بأنه يعني أيضا بأن هدف الفنون كان بالفعل مقبولا ومستحسنا[1].

إن مقاله قد تضمن بعض التخمينات الروائية وبعض المتناقضات الغريبة والمفارقات ومن هذه الناحية يمكن توجيه بعض الاعتراضات إليه: مثل إنكار أن الإنسان كان سعيدا في بهيمته كما يزعم، أو أن المجتمع مسؤول عن كل الشر الموجود في الدنيا ومع ذلك "**فإن المرء ليقف مبهوتا إزاء ما في مؤلفه من رائع، وعمق، وصحيح، وعلى الأخص إزاء ما فيه من حيوية وحالية تثير اهتمامنا حتى أعمق النفوس**"[2].

لقد رفض فيلمر في كتابه Patriarcha قبل مولد روسو بزمن طويل الفكرة التي تزعم أن الناس ولدوا متساوين فهم في ميلادهم خاضعون للسلطان الأبوي ولقوانين الجماعة وعاداتها، وروسو نفسه بعد الصرخة الأولى للدفاع عن الحرية أخذ يبتعد عن الحرية أكثر فأكثر متجها إلى النظام، إلى خضوع الفرد للإرادة العامة، والتناقضات التي تلحظها في مؤلفاته هي أساسا بين خلقه وفكره، فلقد كان فرديا متمردا بحكم مزاجه وعلته وافتقاره إلى الانضباط، وكان بيئيا (لا شيوعيا إطلاقا، ولا حتى جماعيا) بحكم إدراكه المتأخر لاستحالة تكوين المجتمع الفعال من الخوارج[3].

من بين الانتقادات التي وجهت إليه أيضا نرى بأن الحالة الطبيعية لا نجد لها أثرا تاريخيا فهي مجرد افتراض افترضه لكي يتمكن من التوصل إلى الحكم على حالة المجتمع المدني، كما أن فكرة العقد الاجتماعي عبارة عن فكرة افتراضية كذلك لتبرير قيام المجتمع والدفاع عن حقوق الإنسان فيه، ذلك أنه لا يمكن تصور حدوث عقد خارج إطار نظام أو سلطة تنظمه وتحميه، بالإضافة إلى أن قبول الإنسان بالعقد وإنشاء المجتمع

[1]- رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث، ص202.
[2]- نجيب المستكاوى: جون جاك روسو حياته- مؤلفاته- غرامياته، ص 175.
[3]- ول وايرل ديورانت: قصة الحضارة- روسو والثورة، ص 292.

يفترض أن الإنسان اجتماعي، وهذا ما يعيدنا إلى مقولة أرسطو Aristo (384-322 ق.م) الشهيرة "**الإنسان مدني بطبعه**"، كما أن العقد الاجتماعي يفترض مواطنين واعين بالوسائل والغايات، وهذه الأمور من الصعب توفرها لدى الأفراد في مرحلة المرور من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدينة لأنهم إن كانوا يعرفون الأولى فإنهم يجهلون الثانية[1].

تفكير روسو في سلطة الدولة مبني على افتراض مفاده أن أفراد البشر اضطروا إلى الخروج من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية و السياسية، وأن خروجهم هذا إنما هو "**فعل تنازل متبادل و اتحاد تام فيها بينهم وهذا الافتراض لا يجد سندا كافيا له في الواقع، ولا في طبيعة الأشياء، ونقطة الضعف الرئيسية في نظرية انبثاق الدولة من الميثاق الاجتماعي هي تجاهل الوضع السابق لفعل الشراكة، وأعني به وضع الانتماء الذي يُنْوجَدْ عليه الأفراد في الحالة الاجتماعية الطبيعية، ولكن الانتماء لا يتحول إلى انتساب، بل يتراخى ويضعف ويتلاشى، من جهة مقوماته الموضوعية أو من جهة شروطه الذاتية**"[2]. روسو تحدث عن دولة مثالية لا أساس لها في أرض الواقع ،وقد بنى آراءه حول النظام السياسي بشكل مثالي وهي مجرد اقتراحات وافتراضات.

مفهوم الإرادة العامة مفهوم محوري في فلسفة روسو وفي الفلسفة الحديثة والمعاصرة، فعليه يبني نسقه السياسي، وعليه تقوم الأنظمة الديموقراطية الحديثة والمعاصرة، وهو عند روسو يعبر عن خير مشترك في مجتمع محدد لأن الإنسانية ليست إلا مفهوما مجردا لا يعبر عن كائن اجتماعي فعلي، وبهذا يكون روسو قد أعطى، أو على الأقل حاول أن يعطي لمفهوم الإرادة العامة معنى اجتماعيا وسياسيا واقعيا وفعالا، رغم الانتقادات التي سلطت عليه من بعد بوصفه بالتجريد الذي يؤدي إلى نتائج عكسية لتلك التي كان روسو يهدف إليها وأحسن مثال في هذا الصدد يتمثل في نقد هيجل لمفهوم الإرادة العامة و وصفه بأنه يؤدي

[1]- مختار عريب: الفلسفة السياسية من المفهوم الكلاسيكي إلى البيوتيقا، ص 176.

[2]- ناصيف نصار: منطق السلطة مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج للنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 2001، ص76.

إلى العنف كما حدث في الثورة الفرنسية[1].ومع ذلك فإن الإرادة العامة هي روح الشعب ومصلحته العليا وتهدف لتحقيق الخير للجميع وهي حاملة السيادة.

يبرر بنتام[*] Jeremy Bentham (1748-1832) رفضه لنظرية العقد الاجتماعي عندما يقول: "**إن مصلحة الرعايا وسعادتهم تكمن في طاعة السلطة السيدة طالما أنها كانت تحكم بهدف زيادة هذه السعادة**"[2]، لقد ربط جيرمي بينتام طاعة السلطة بمبدأ اللذة الذي يؤدي بدوره إلى تحقيق السعادة والقضاء على مختلف مظاهر الفوضى والنزاع التي تهز الكيان الاجتماعي دون الحاجة إلى ابرام عقد اجتماعي؛ أي أن مبدأ المنفعة يكفي لتبرير طاعة السلطة من دون اللغة التعاقدية غير المجدية تماما، كما ينتقد كذلك حقوق الإنسان أو الحقوق الطبيعية غير القابلة للتنازل عندما يقول: "**إنها مجرد وهم إنها مجرد ميتافيزيقا، نعم إنها في الحقيقة أوج الميتافيزيقا فلا يمكن أن تقيم فوقها أي شيء ثابت**"[3]، أما بالنسبة لنظرة بينتام لحقوق الإنسان أو الحقوق الطبيعية فقد كانت نظرة مبالغ فيها حيث اعتبرها مجرد وهم وميتافيزيقا والواقع يثبت عكس ذلك، فالحقوق الطبيعية كالحرية والمساواة لا يمكن التنازل عنها حتى بعد ظهور العقد الاجتماعي ونشوء دولة القوانين.

لقد عارض فولتير المعاصر لروسو هذا العقد لأنه يدعو في رأيه الفقراء إلى سرقة الأغنياء في حين شكك ألتوسير في شرعية هذا العقد الذي ظل يكرس مصالح من يملكون ضد من لا يملكون، فعلى الرغم

[1]- مختار عريب: الفلسفة السياسية من المفهوم الكلاسيكي إلى البيوتيقا، ص 169.

[*]- بنتام (1748-1832) فيلسوف أخلاق ومشرع انجليزي، ومن دعاة مذهب المنفعة في الأخلاق والقانون. (انظر:عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، ج1، ص362).

[2]- نقلا عن: نور الدين حاروش: تاريخ الفكر السياسي، ص316.

[3]- نفسه، الصفحة نفسها.

من اكتشاف روسو أن الذي أخرج الإنسان من حالة المساواة الطبيعية إلى المجتمع المدني الظالم هو المال والملكية، إلا أنه اعتبر الملكية هي الأساس الحقيقي للمجتمع المدني، والسبب الضروري للدولة وليس الحق[1].

يعتبر روسو رائد المذهب الطبيعي وقد بنى مذهبه انطلاقا من أن الفرد هو شعار التربية، والتربية القويمة لا تتحقق إلا بإطلاق الحرية التامة للأطفال، وأن أساس التربية لا يتمثل في الإعداد للمستقبل بل هي إعداد للحاضر، وقد جاءت معظم آرائه التربوية في كتابه "إميل" هذه الرواية التي جاءت لتصدم فولتير والفلاسفة والعقلانيين أيضا الصدمة المذهلة، وقد اعتبروا الآراء الواردة فيها ثرثرة فارغة وهراء محسوبا يهدف إلى القضاء على جميع المكاسب التي حققها العقل، وإلى العودة بالجنس البشري إلى البربرية البدائية، فانطلقوا يسخرون منه ويتهكمون عليه وساعدوا في العمل على نفيه ونجحوا في ذلك، ولكنهم فشلوا تماما في إزالة الآثار التي خلفتها مؤلفاته في نفوس القراء تلك المؤلفات التي كانت أوسع رواجا من الموسوعة وحتى من مسرحيات فولتير بالذات[2].

وما يؤخذ على التربية الطبيعية أنها قد اهتمت بإعلاء شأن الطفل أكثر من اهتمامها بإعلاء شأن المربي، فالمربي له دور في عملية تربية وتوجيه الطفل، كما أنها بالغت في مسألة ترك الطفل يتدبر أمر نفسه بنفسه، واعتمادها على التجربة كوسيلة لتعلم الطفل، ذلك أن التجربة قد تكون في كثير من الأحيان خطر على حياة الطفل، هنا تظهر ضرورة حضور المربي في عملية توجيه تلك الخبرة لتكون مفيدة ونافعة.

كما أن روسو بقوله أن مرحلة تعلم الطفل القراءة والكتابة تبدأ منذ سن الثانية عشرة هنا قد ساهم في ترك الطفل جاهلا دون تعلم قبل ذلك السن.

[1]- بليمان عبد القادر: الأسس العقلية، ص86.

[2]- رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث، ص209.

وبهذا فإن فكر روسو التربوي جاء بصورة مباشرة كرد فعل للتقاليد التربوية السابقة غير أن ما طرحه من أفكار تربوية إذا كان لها صبغتها الاجتماعية الإصلاحية، فإنها تخلو من تأصل فلسفي، ولم تستند إلى عمل تجريبي، ومع ذلك فقد كانت لآرائه تأثير كبير على التربية، بل ونمو حركة الفلسفة الطبيعية[1].

رغم هذه الانتقادات التي وجهت لروسو إلا أنه بافتراضاته قد قدم خدمة نادرا ما نجد لها نظيرا في تاريخ الفكر البشري وذلك بإحداثه ثورات في المجال الاجتماعي، المجال السياسي، وكذا المجال الأخلاقي حتى أن أعماله قد أصبحت محل اهتمام الكثير من الباحثين والدارسين، ولا يزال نتاجه الفكري رائجا على نطاق واسع بين القراء.

[1]- أحمد علي الحاج محمد: فلسفة التربية، ص125.

بناء على التحليل السابق نستنتج أن: روسو وإن كان أقرب إلى المصلح الاجتماعي، الذي ساءته مظاهر الشقاء والظلم نتيجة القيود الفاسدة التي فرضها المجتمع على الإنسان، فقد ساهم في نقد تلك الأوضاع التي كانت سائدة في عصره، وقدم بذلك بديلا لها، ورأى أن السبيل لتحقيق الإصلاح الأخلاقي يكمن في إيجاد أسلوب تربوي سياسي ديني كفيل بإصلاح المجتمع.

إن الاجتماع قد أصبح ضروري ومن العبث محاولة فضه لذا يجب أن نقيم الحكومة الصالحة لتكوين مواطنين صالحين، وبما أن العقد الأول هو الذي يقف وراء فساد الإنسان الطبيعي، فإن عملية إصلاح ذلك الفساد مقترنة بإصلاح السياسة، وعليه فإن الدولة موجودة لغاية أخلاقية فهي تسعى جاهدة لإصلاح الانحرافات وتحقيق العدالة ،كما أنه يمكن القول أن الهدف من الإصلاح الأخلاقي للسياسة هو إيجاد شكل للاجتماع من شأنه أن يحمي الأشخاص وممتلكاتهم،ومنه فإن مهمة العقد الاجتماعي الشرعي هو إصلاح مفاسد الأهواء البشرية وإسكاتها، ولما كانت الإرادة العامة هي إرادة المجموع فإن هدفها القضاء على الأنانية الفردية وتحقيق العدالة الإنسانية.

للتربية عند روسو دور إصلاحي، فهي تقوم بإصلاح ما يفسده المجتمع في الإنسان، ومنه فالتربية الحقة السليمة هي التي تقوم على أساس الخبرة والممارسة التي تتماشى مع مراحل نمو الطفل، وهي عملية طبيعية الغاية منها الإصلاح، وللدين حظ أيضا في عملية الإصلاح الأخلاقي فهو الطريق الذي يهتدي به الإنسان ويقوي فيه الفضيلة وهذا الدين هو الدين الطبيعي، دين القلب في نظر روسو ولا يستند إلى الوحي.

كما أن النظرية الأخلاقية عنده بنيت أساسا على أن الضمير مبدأ داخلي فطري في الإنسان بواسطته نستطيع الحكم على نوعية السلوك إن كان خيرا أو شرا، فهو مبدأ لكل ما هو خير وحضوره ضروري لبناء حياة أخلاقية مبنية على الخير والفضيلة، ولذلك كانت قواعد الأخلاق منبثقة من الضمير قصد تزكية النفوس وتطهيرها لبلوغ السمو والكمال الإنساني.

الخاتمة

خاتمة:

في خاتمة بحثي هذا أستطيع أن أخلص مما تم عرضه وتحليله إلى أهم النتائج التالية:

إن روسو قد أعاد في النهاية تركيز الفكر الإنساني حول الإنسان نفسه الذي أصبح المحور الجوهري في التفكير الإنساني، كما ويعود الفضل لروسو كذلك في إحلال الإنسان الصدارة في الدراسات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية، بل وأعطى أهمية كبيرة لمعرفة الإنسان وكانت غايته من ذلك معرفة أصل الشرور الحاصلة في الكون والعودة بالإنسان إلى حالته البدائية.

بنى روسو فلسفته من أطروحة الحالة الطبيعية السابقة لظهور القوانين والدولة، غير أن مرحلة الطبيعة هي مرحلة افتراضية فقط، فالشواهد التاريخية لم تكشف عن وجود مرحلة تاريخية بهذه التسمية غير أن الانطلاق منها يبقى ضروري لتبيين كيفية الانتقال من حالة إلى أخرى، وقد أسس روسو نظريته حول الإنسان الطبيعي مقرا بالطبيعة الخيرة لهذا الأخير، وتلك الخيرية صادرة عن مصدر ثابت وهو الله، فزود الانسان بمبدأ فطري وهو الضمير به نحكم على أفعالنا بالخير أو الشر ،وقد نفي الشر عن الإنسان، وتبرئة الله من مسؤولية وجود الشر، فلا يمكن أن يأتي الشر من كائن لا متناهي خير، فالشر لم يأت من الإنسان كما أنه لم يأت من الله بل من مصدر آخر هو المجتمع.

نخلص إلى أن الناس كانوا محكومين بالطبيعة البشرية التي كانت ضد الشرور وضد تسلط أحد على أحد، أما الشرور والمفاسد فمن فعل المدينة والتقدم، والملكية الخاصة، فأصل الشر في الحضارة وقد قادت البشرية إلى حياة مصطنعة ومنحطة، فالإنسان طيب بطبيعته أما الشرور فتأتي من كونه يعيش داخل المجتمع.

أرجع روسو الشرور الحاصلة إلى قابلية الإنسان للتطور هذه الخاصية التي انفرد بها عن الحيوان قد كانت سببا رئيسيا في شقائه، وقد عدّ الملكية عامل سلبي في تاريخ الإنسانية إذ أن ملكية الأرض تولد اللامساواة وتؤدي إلى صراع المصالح والعبودية، كما أن العلوم والفنون والفوارق الطبقية غيرت من طبيعة

الإنسان الذي خلق من أجل أن يكون حرا وفاضلا، فأصبح بواسطة هذه العوامل إنسانا شقيا وفاقد للفضيلة ، فكان روسو ضد كل فكر وتفكير فالتفكير الإنساني أدى إلى الحضارة والمدنية والترف وهذه كلها أصل الشقاء والشرور ، وعليه فإن الاجتماع البشري يعصف بالحياة الخيرة للإنسان ويدخلها في دواليب التدهور والانحطاط ، فالمجتمع قد ساهم في فساد الأخلاق وتزييف الفضائل الإنسانية ، ومنه فإن الإنسان الطيب بالطبيعة قد تحول إلى كائن شرير بفعل الاجتماع، فالاجتماع إذن شر وأصل شقاء الإنسانية.

قدم روسو مشروعا إصلاحيا لكل الأخلاق الفاسدة التي تسببت فيها المدينة والحضارة ورأى أن السبيل لتحقيق ذلك يتمثل في إيجاد نمط سياسي، تربوي ، ديني ، فقد عاصر فترة حرجة من تاريخ المجتمع الفرنسي ولاحظ ما فيه من صراع بين أفراده ، وقد كان ذلك سببا في ظهور مشاكل عديدة أهمها تردي الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية باحثا عن سبيل لإخراج المجتمع الفرنسي من ذلك الوضع، وقد استطاع روسو ابن عصر التنوير أن يساهم بشكل كبير في بلورة مفاهيم معقدة في المجال السياسي و الاجتماعي والأخلاقي مثل الحرية، الديمقراطية، التربية ، حقوق الإنسان هذه المفاهيم التي حولها إلى أدوات نقدية الغاية منها إصلاح المجتمع وإعادة بعثه من جديد.

نادى روسو بوجوب اتباع الطبيعة فهي أول نقطة في عملية الإصلاح سواء كان إصلاحا سياسي أو أخلاقي، وعملية إصلاح الفساد والشرور مقترنة بإصلاح السياسة ومنه فالدولة تهدف لإصلاح التشوهات والانحرافات وتحقيق العدالة، ولها دور في تربية الفرد وتنشئة، فهي موجودة من أجل حمايته وحفظ كرامته ،كما أن مهمة العقد الاجتماعي الشرعي هي إصلاح مفاسد الأهواء البشرية وإسكاتها، وهو عبارة عن تنازل الأفراد عن حقوقهم تنازلا كليا للإرادة العامة، فهو يعتبر الضامن الحقيقي لتحقيق المساواة وإصلاح مفاسد الأهواء حتى يتجسد المواطن الصالح داخل الدولة.

للتربية دور في عملية الإصلاح كذلك وقد تضمن برنامج التربية عند روسو أربع مراحل هي: الحياة الطبيعية ، الحياة العقلية ، الحياة الخلقية، الحياة الدينية ، وذلك بأن يترك الطفل للطبيعة فيربي نفسه بنفسه فينشأ بذلك حر وهذا يعني أن التربية الصحيحة عند روسو تقوم على أساس الخبرة والممارسة ، وهي إعلاء من شأن الطبيعة وإيمان بخيرتها والتربية القويمة هي السير وفق قوانينها، كما أن للدين دور في عملية الإصلاح فهو الذي يقوم السلوك الإنساني ،ويوجه الإنسان نحو طريق الفضيلة والسعادة وهذا الدين هو الدين الطبيعي في نظر روسو وهو دين لا يستند إلى الوحي. بالإضافة إلى أن نظرية الأخلاق عند روسو بنيت على أساس أن الإنسان خير بطبعه، وهي تقول أن الضمير الأخلاقي متأصل في الطبيعة الإنسانية وله فعالية في الشأن الأخلاقي فهو الحكم في التمييز بين الخير والشر ومعطياته هي جوهر القيم والمبادئ الفاضلة.

وعليه نقول أن إسهامات روسو الفكرية قد جاءت لتبين تميز فلسفته في نبذ العلاقات الاجتماعية بما تتضمنه من تزييف وتكلف ،وقد كانت آراءه آراء منفتحة نابضة بأوضاع المجتمع وأزماته كما أنها فتحت أفقا جديدا للتفكير في الشؤون السياسية للمجتمعات المعاصرة التي يحققها العقد الاجتماعي على الاجتماع والأخلاق والسياسة هذا ما جعل الفكر الكانطي حبيس بالروح الروسيوية في الكثير من الجوانب.

وقد تجلى عمق تأثير روسو على العديد من المفكرين الذين عاصروه وجاؤوا من بعده، سواء في العصر الحديث أو المعاصر في تأثيره على الواقع الأوربي لهذه الفلسفة وإسهامه في الثورة على الأنظمة السياسية السائدة في عصره ،واستطاع أن يؤثر في الفكر الفلسفي والسياسي المعاصر ولا تزال أفكاره محل نقاش وانتقادات من قبل المفكرين.

فهرس

المصطلحات

فهرس المصطلحات:

الاجتماع Sociologie: الاجتماع ضد الافتراق قال ابن سينا "الاجتماع هو وجود أشياء كثيرة يعممها معنى واحد، والافتراق مقابله". (انظر جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، دط، لبنان، 1980، ص38).

الأخلاق Morale: في اللغة جمع خلق وهو العادة والسجية والطبع والمروءة وهي علم يبحث في الأحكام الخاصة بالخير والشر والفضيلة. (انظر مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، دط، القاهرة، 2007، ص33).

الإرادة العامة Volonté générale: عند روسو تعني الاتجاه نحو الخير العام ولهذا فهي لا تتأثر بالمصالح الخاصة التي يمكن أن تكون معارضة للخير العام، ومن ثم تحل الإرادة العامة محل الإرادة الفردية فيعدل كل فرد عن أنانيته ويتنازل عن حقوقه للمجتمع بأكمله، وهذا هو البند الوحيد للعقد الاجتماعي إذ بمقتضاه يصبح الكل متساوين في ظل الإرادة العامة. (انظر مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص42).

الاغتراب Aliénation: الضياع، الغربة والاغتراب عند ماركس أن يفقد الإنسان حريته واستقلاله الذاتي بتأثير الأسباب الاقتصادية، الاجتماعية، الدينية ويصبح ملكا لغيره. (انظر جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، ص 265).

التربية Education: هي تبليغ الشيء إلى كماله أو هي كما يقول المحدثون تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كما لها شيئا فشيئا. (انظر جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، ص 266).

حال الطبيعة Etat de nature: استخدم روسو هذا المصطلح للدلالة على أن الإنسان كان متوحدا في الغابة وكان حرا مستقلا. (انظر مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص 263).

الحب الخاص Amour-propre: وهو تملكي محمول على نفسه دون سواه، فلا موضوع له سوى العلاقة التملكية التي للشخص بنفسه، وهو مصطلح بالاجتماع لم ينشأ إلا ملازما للملكية الخاصة سببا ونتيجة. (انظر جون جاك روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، ص 100).

حب الذات Amour de soi: عند روسو هو غريزة المحافظة على الذات ومراعاة المنفعة الذاتية بدون إيذاء الآخرين ويفرق بين حب الذات والأنانية التي تشترط تأكيد الذات على حساب الآخرين. (انظر مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص 264).

الحرية Liberté: حال الكائن الحي الذي لا يخضع لقهر أو غلبة، ويفعل طبقا لطبيعته وإرادته وتصدق على الكائنات الحية جميعها من نبات وحيوان وإنسان. (انظر ابراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، دط، القاهرة، 1983، ص 71).

الخيرية Bonté: بمعنى طيبة وهي صفة لمن يشعر بآلام الآخرين، ويرغب في تحقيق سعادتهم أو في دفع الأذى عنهم. (انظر مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص 303).

السياسة Politique: يراد به فرع من العلم المدني يتناول أصول الحكم وتنظيم شؤون الدولة. (انظر مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص 353).

الشر Mal: ضد الخير، ومعناها معلوم لجمهور الناس بداهة، يصفون بكل منهما أشياء مخصوصة ويسلبونهما عن أشياء أخرى، ولكنهم لا يفرقون بين ما بالذات وما بالعرض ويطلقون الخير أو الشر على كل منهما والشر قسمان وكذا الخير: شر بالذات هو العدم، وهو الشر المحض وشر بالعرض هو العدم، بمعنى الحابس للكمال عن مستحقه والشرية ضد الخيرية، وهي عند ابن سينا من علائق الهيولى والعدم. (انظر عبد المنعم الحنفي: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، ط3، دم، 2000، ص 435، 436).

الشرعية Légalité: وهي تصرف الأفراد والمؤسسات السياسية والاجتماعية في المجتمع في إطار القواعد التي حددتها السلطات العامة أي القواعد ذات الصفة العامة والالزامية. (انظر إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، ددن، دم، دت، ص254).

الشفقة Pitié: الشفقة قد تكون مرادفة للتعاطف نحو مصائب الآخرين وقد تكون مرادفة للعاطفة الخلقية. (انظر مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص366).

الضمير Conscience: خصوصية العقل البشري في إصدار أحكام معيارية/قيمية، تلقائية وفورية، على القيمة، يرى ج.لا شلييه "أن خصوصية الضمير هي الاستحسان أو الاستقباح، إذ أن الفرح والألم لا يأتيان إلا بعد الحكم الأخلاقي".(انظر أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب أحمد خليل، مج1، منشورات عويدات، ط2، بيروت، باريس، 2001، ص 212).

العاطفة Sentiment: تفيد معنى من المعاني الوجدانية مثل الشفقة والحنو ثم أطلقت على جميع مظاهر الحب أو الكراهية أي الميل إلى لاشيء أو الميل عنه. (انظر مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص 406).

العبودية Servitude: لفظ مشترك يؤدي تمام المقصود من الخدمة بالتبعية والإكراه إن بمقابل أو من دونه. (انظر روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، ص133).

العقد الاجتماعي Contrat social: عند روسو هو عقد بمقتضاه يتنازل كل فرد عن نفسه وعن حقوقه للإرادة الكلية، ويصبح كل فرد جزءا لا يتجزأ من الكل. (انظر مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص 421).

الغريزة Instinct: الدافع الحيوي الأصلي لنشاط الكائن الحي حفظا لبقائه، وذلك بالإقبال على الملائم والأحجام على المنافى. (انظر مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص 447).

الفطري Inné: وهو المنسوب إلى الفطرة، وهو مقابل للمكتسب والفطرة هي الجلبة التي يكون عليها كل موجود في أول خلقه. (انظر جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، دط، بيروت، لبنان، 1982، ص 150).

القابلية للكمال Perfectibilité: يعني استعداد الإنسان بالفطرة للتحسن والاستجادة ابتغاء للخير وكمال الصفات، والتدرج نحو الغاية القصوى حتى دون بلوغها. (انظر روسو: خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، ص84).

المجتمع المدني Civil society: هو وحدة مستقلة ومميزة عن المجتمع السياسي انه لا يخضع لتأثير النظام السياسي الطبيعي، وإنما هو يمثل مجموعة قوى تميل عندما تحقق تطور بعد ذلك إلى إخضاع المجتمع السياسي ذاته، وأكد هيجل معنى المفهوم بأنه نسق العلاقات الاجتماعية المتبادلة. (انظر إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: الموسوعة الميسرة للمصطلحات، ص 375).

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

1- قائمة المصادر:

أ. باللغة العربية:

1. جون جاك روسو: أصل التفاوت بين الناس، تر: بولس غانم، موفم للنشر سلسلة الأنيس، 1991.

2. ---------: أصل التفاوت بين الناس، تر: عادل زعيتر، مؤسسة الأبحاث العربية، ط2، بيروت، 1995.

3. ---------: العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية، تر: عادل زعيتر، مؤسسة الأبحاث العربية، ط2، بيروت، 1995.

4. ---------: إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، تر: نظمي لوقا، تقديم أحمد زكي محمد، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، دت.

5. -------:خطاب في أصل التفاوت و في أسسه بين البشر، تر: بولس غانم، تدقيق وتعليق وتقديم عبد العزيز لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2011.

6. --------:دين الفطرة أو عقيدة القس من جبل السافوا، تر: عبد الله العروي، الدار البيضاء، ط1، المغرب، 2012.

7. ---------: في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، ترجمة وتقديم وتعليق: عبد العزيز لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2011.

ب. بالغة الأجنبية:

1. J-J Rousseau : Discours sur les sciences et les arts. Librairie générale françaises. 2004.

2. ----------: Emile ou l'éducation, préface par: MJ labbe, librairie classique Eugène belin, paris, 1883.

2- قائمة المراجع:

أ. باللغة العربية:

1. أحمد علي الحاج محمد:فلسفة التربية، دار المناهج، ط1، الأردن، 2002.

2. اميل بريبه: تاريخ الفلسفة، تر: جورج طرابيشي، ج5، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1983.

3. أندري كريسون: تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث، تر: نهاد رضا، منشورات بحر المتوسط ومنشورات عويدات، ط2، بيروت، باريس، 1982.

4. --------: روسو حياته -فلسفته- منتخبات، تر: نيه صقر، منشورات عويدات، ط4، بيروت، 1988.

5. بتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية، تر: محمد فتحي الشنيطي، الكتاب 3، المصرية العامة للكتاب، د ط، د م، 1977.

6. بليمان عبد القادر: الأسس العقلية السياسية، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر، 2007.

7. جاك ماريتان: الفرد والدولة، تر: عبد الله أمين، منشورات دار مكتبة الحياة، دط، بيروت، دت.

8. جون لوك: الحكومة المدينة بقلم جون لوك وصلتها العقد الاجتماعي لجان جاك روسو، تر: محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة والنشر، د ط، د م، د ت.

9. جان توشار: تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار، تر: ناجي الدراوشة ،دار التكوين للتأليف و الترجمة و النشر ،ط1، سوريا،2010.

10. الربيع ميمون: نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقيّة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 1980.

11. رومان رولان: آراء روسو الحية: تر: محمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنان، 1961.

12. رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث، دار القارئ العربي، ط3، القاهرة، 1994.

13. زروخي اسماعيل: دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2001.

14. عبد المجيد عمراني: محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي والسياسي، منشورات الحبر، ط1، الجزائر، 2008.

15. علي عبود المحمداوي: الفلسفة السياسية المعاصرة من الشموليات إلى السرديات الصغرى، مراجعة شوقي الزين وإسماعيل مهنانة، دار الروافد الثقافية، ط1، دم، 2012.

16. فضل الله محمد إسماعيل: الأصول اليونانية للفكر السياسي الغربي الحديث، بستان المعرفة لطبع ونشر وتوزيع الكتب، ط1، الإسكندرية، 2001.

17. ف فولفين: فلسفة الأنوار، تر: هنرييت عبودي، مراجعة، جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2006.

18. ليوشتراوس وجوزيف كروبسى: تاريخ الفلسفة السياسية من جون لوك إلى هيدغر، تر: محمد سيد أحمد، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، ج2، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2005.

19. محمد بدوي السيد: الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، دط، الإسكندرية، 2000.

20. محمد علي محمد، علي عبد المعطي محمد: السياسة بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية، د ط، بيروت، 1985.

21. مختار عريب: الفلسفة السياسية من المفهوم الكلاسيكي إلى البيوتيقا، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، د ط، د م، د ت.

22. ناصيف نصار: منطق السلطة مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج للنشر والتوزيع، ط2، لبنان، 2001.

23. نجيب المستكاوى: جون جاك روسو حياته- مؤلفاته- غرامياته، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1989.

24. نور الدين حاروش: تاريخ الفكر السياسي، شركة دار الأمة، ط3، الجزائر، 2012.

25. ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، تر: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، ط6، بيروت، 1988.

26. ----------: قصة الحضارة- روسو والثورة، تر: فؤاد أندراوس، مراجعة علي أدهم، ج1، دار الجبل للطبع والنشر والتوزيع، دط، بيروت، دت.

27. ياس خضير البياتي: النظرية الاجتماعية جذورها التاريخية وروادها، دار الكتب الوطنية بنغازي، ط1، ليبيا، 2002.

28. يحي هويدي: دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار النهضة العربية، دط، القاهرة، 1968.

29. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، كلمات عربية للطباعة والنشر، دط، القاهرة، 2012.

ب. باللغة الأجنبية:

1. Marcel Hénaff: Rousseau, le contrat, le silence des passions (passions et politique 12/13. Albin Michel). Paris. Mai 1995.

3- الموسوعات والمعاجم:

1. إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، دط، القاهرة، 1983.

2. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، ددن، دم، دت.

3. أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، مج1، تعريب أحمد خليل، منشورات عويدات، ط2، بيروت، باريس، 2001.

4. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، (ج1، ج2)، دار الكتاب اللبناني، دط، بيروت، لبنان، 1992.

5. عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، (ج1، ج2)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، ص1984.

6. عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، ط3، دم، 2002.

7. فؤاد كامل وآخرون: الموسوعة الفلسفة المختصرة، دار القلم، دط، بيروت، لبنان، 1982.

8. مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، دط، القاهرة، 2007.

9. جميل الحاج: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 2000.

4- قائمة المجلات:

1. منيرة محمد: مبادئ الإلزام الخلقي، مجلة جامعة دمشق، المجلد28، العدد 3+4، 2012.

فهرس

المحتويات

فهرس المحتويات

شكر وعرفان

إهداء

مقدمة..... أ

الفصل الأول: الإنسان الطبيعي عند جون جاك روسو

المبحث الأول: معرفة الإنسان وتحديد أصل الشر..... 6

أولا: معرفة الإنسان..... 7

ثانيا: تحديد أصل الشر 9

المبحث الثاني: خيرية الله كتوافق مع خيرية الإنسان. 16

أولا: عصمة الوجدان الخلقي عند روسو 16

ثانيا: صدى خيرية الله في الإنسان 20

المبحث الثالث: خصائص ومبادئ خيرية الإنسان الطبيعي...... 24

أولا: خصائص خيرية الإنسان..... 24

ثانيا: مبادئ خيرية الإنسان 28

الفصل الثاني: نشأة الشر

المبحث الأول: خروج الإنسان عن حالة الطبيعة..... 36

أولا: القابلية للتطور ونشأة المجتمع..... 36

ثانيا: عوامل خروج الإنسان عن الحالة الطبيعية 39

المبحث الثاني: فساد أخلاق الإنسان المدني. 44

أولا: التفكير العقلاني وفساد الأخلاق..... 44

ثانيا: نشأة الحب الخاص 48

المبحث الثالث: انهيار خيرية الإنسان الطبيعي. 51

أولا: المجتمع وتزييف فضائل الإنسان 51

ثانيا: الملكية ونشأة الأهواء العنيفة 54

الفصل الثالث: الإصلاح الأخلاقي للشر

المبحث الأول: الإصلاح الأخلاقي للسياسة 60
أولا– السياسة والأخلاق 60
ثانيا– الإرادة العامة وإسكات الأهواء 63
المبحث الثاني: الإصلاح الأخلاقي للتربية والدين 68
أولا– الإصلاح الأخلاقي للتربية 68
ثانيا– الإصلاح الأخلاقي للدين 72
المبحث الثالث: نظرية الأخلاق عند روسو 78
أولا : مبادئ النظرية الأخلاقية 78
ثانيا: نقد وتقييم 82
خاتمة 91
قائمة المصطلحات 95
قائمة المصادر والمراجع 100
فهرس المحتويات 105

بحمد الله